محمد عصام الدين

عن هوس الأمير

ثلاثيات قصصية

رواقد
للنشر والتوزيع

عصام الدين، محمد

عن هوس الأمير/محمد عصام الدين.

القاهرة: روافد للنشر والتوزيع، ط1/2024.

84 ص ؛ 21 سم

1- قصص 2- العنوان أ. المؤلف

رقم التصنيف: 813،01

رقم الإيداع: 2024/4669

ISBN: 978 - 977 - 751 - 793 - 5

جميع الحقوق محفوظة للناشر

روافد للنشر والتوزيع

+2 0122-2235071

rwafead@gmail.com

www.rwafead.com

لوحة الغلاف: "انتفاضة الخبز 77"

الفنانة آية بدر

محمد عصام الدين

عن هوسِ الأمير

ثلاثيات قصصية

إلى تلك الفتاة التي قدمت كل شيء..
أقدم إليكِ كل ما أملك..
حكاياتي..

محمد عصام الدين.

عن هوس الأمير..

(1)

الشيخ سرحان الجخاخ هو مولانا وأميرنا. كلمته كلمة الحق، وقوله القول الفصل، وهذا بإجماع أهل الجماعة، ولكل رجل منّا معه حكاية، وحادثة غيرّت أحداث الزمن وحوادثه، الكل يدين له بالفضل والولاء، والأهم أننا ندين له بالطاعة؛ فأمره مُطاع وإن كان في غير المستطاع!..

(2)

في طفولتنا كنا نجتمع كل جمعة في مسجد الفاروق بشارع الفاروق؛ لنحفظ القرآن الكريم، ونتلقى دروس العلم في الفقه والحديث على يد الشيخ سرحان.. نفترش أرض المسجد ذات السجاد المزخرف بخطوط مستقيمة وكأنها سراطنا المستقيم الذي لا نحيد عنه قيد أنملة، وفي إحدى المرات أخبرنا أكبرنا سنًا أن هناك سبق؛ فسابقوا.. وكان السبق بطول كورنيش البحر المسمى بطريق الحرية والطريق طويل، حيث أن المسافة من قلعة قايتباي إلى منتزه الملك فاروق وقوفًا بمعسكر قيصر لإثبات المرور..

وكانت الجائزة ثمينة جدًا، لا يستحقها إلا المجتهد بحق، المثابر ذا النفس الطويل، فقد كانت الجائزة مصحفًا، ولكنه ليس كأي مصحف، إنما مُصحف الأمير سرحان ذاته، مصحفًا مُذهبًا ناله في سبقٍ مماثل من يد أميره قبل زمن، وأميره ناله من أميره، وهكذا فكانت العادة من يحصل على المصحف في ذاك السبق يُصبح مؤهلًا للإمارة..

كانت المسألة بالنسبة لي مسألة حياة أو موت، المصحف لي ولو كره الكارهون، بأي طريقةٍ سأحصل عليه، رغم أن عدد المشاركين يفوق المائة، وأعمارهم متباينة، وكانت عندي حيلة أسهمت في أن أفوز!، جريت مئات الأمتار ونزلت في الطريق قبل معسكر قيصر لأثبت حضوري وقد كنت من أواخر القوم في الوصول منهكًا ألهث كما كلب يموت، ثم أكملت متباطئًا حتى أصبحت الأخير، جلست على رصيف البحر أجمع أنفاسي وشتات نفسي، ثم فكرت لماذا لا أستقل حافلة؟، أيعتبر هذا غشًا؟، وإن كان.. فليكن ما يكون سأحصل على مصحف الأمير، سأصبح يومًا أميرًا..

فزت بهذا المصحف يومها، ولم أقربه قط، لم أقرأ فيه يومًا خشيةً من أن أهلك صفحاته وهو هدية أميري ومولاي وشهادته بأفضليتي عن الجميع، كنت أتناول أي مصحفًا أخر في البيت أو في المسجد وأقرأ فيه، حتى أنني ظننت في طفولتي أن كلام الله في مصحف الأمير مغاير عما في كل المصاحف.. أقبله وأرفعه لجبهتي ثلاثًا بعد كل صلاة، ولا أنام إلا والمصحف إلى جواري..

(3)

أما عن صفات الشيخ سرحان: فهو متواضع أيما تواضع، لا يمشي في الأرض مختالًا، قنوع برزقه، كثير التصدق، لا يحب الترف، لم يشتر سيارة قط، ولكن إخوتنا في جماعتنا ممن يملكون السيارات، دائمًا ما يجعلون واحدة أو أكثر تحت قدمي الشيخ، يتصرف فيها كيفما يشاء، ويذهب بها حيثما شاء..

والجخاخ عالم، ليس في علوم الدين فقط، إنما في الطب، بالرغم من علمه -الذي فتح الله عليه به- في الفقه والحديث والقرآن من

علوم الدين، لم يسرفه ذلك عن التميز في علوم الدنيا أيضًا، فهو من أمهر الجراحين، طبيب خبير، درس في مصر وخارجها، وأجرى العديد من الجراحات، ولم يكن متاجرًا بعلمه، فهو كثيرًا ما يقوم بجراحات للفقراء دون أجر ولو بسيط، بل وكان يتكفل بالعلاج أيضًا..

في طفولتي أجرى لي جراحة استئصال المرارة، ومن يومها لا مرارة ولا كدر، كلنا ندور في فلك الأمير، نسعى لمرضاته وننهل من علمه، يعلمنا القرآن، ويحكي لنا عن السيرة المحمدية، ويشرح لنا الأحاديث، وفضل الجهاد، وكيف تكون الزكاة، ويروي لنا عن عذاب القبر وأهوال يوم القيامة وعلاماتها الصغرى والكبرى، كنا نسمع ونتلقن العلم، وكان الشيخ فصيح اللسان، عذب اللغة، حجيج، كنا نسمع ونطيع ولا نناقش..

(4)

أسرتي أسرة فقيرة لا تقوى على صعوبات الحياة، نحيا سبعة في حجرة منزوية على سطح بيت قديم، أب مقعد وأم كفيفة، ولي أخ واحد، وثلاث أخوات، أتوسط أخوتي يكبرنا أخي فضل، وقد كان مدمنًا للحشيش وموزع صغير، قُبض عليه وحكم عليه أن يقضي ما تبقى من عمره سجينًا، وثلاث فتيات: رضا، عطا، وهبة.. تزوج الشيخ من رضا وهي في الثامنة عشر، وقرن_ كرمه الله_ عطا إلى أخيه وهي في الرابعة عشر، وعقد خطبة الصغرى هبة وهي دون العاشرة إلى أخ فاضل من إخوتنا وتزوجا بعد عام وسافرا إلى الخارج.. وتكفل الأمير بعلاج أبي وأمي، وعاملهما كوالديه..

كنت حينها في السادسة عشر من عمري، علمني الشيخ فأحسن تعليمي، حتى تخرجت من كلية العلوم وحزت شهادتي، فساعدني في

ايجاد وظيفة كممثل طبي لإحدى شركات الأدوية الكبرى، وزوجني لأخت كريمة، وانجبنا أربع فتيات..

أدين للأمير بالكثير، كل شيء تقريبًا، علمي كان الشيخ سرحان مصدره، كل معرفتي دينية كانت أم دنيوية، فمولانا الجخاخ مصدرها.. كنت له مريدًا وكان لي وليًا،كان يعدني لإمارة الجماعة، ولأكن خلفًا له، ألحقني بالحزب الذي ينتمي إليه، فكنت سنده، وكنت ساعده الأيمن في كل شيء: المسجد، الحزب، وشركة الأدوية_ التي أكتشفت فيما بعد أنها كانت ملكًا له_، ظللنا هكذا حتى وقعت الحادثة..

(5)

وقبل أن أدخل في تفاصيل هذا الحادث عليّ أن أحيطكم علمًا بالمنطقة التي أقطن بها، فهي منطقة شعبية، لا تخفى فيها خافية، كل ساكنيها يعرفون بعضهم البعض، ولا نهاية في منطقتنا للشائعات..

وهي تشبه كل مناطق الحي أزقة ضيقة، حوانيت قليلة، عفنة في النهار، مظلمة في الليل، شوارعها ترابية غير مرصوفة، ترعى فيها الدجاج والبط والأوز، أطفالها حفاة يلعبون في الشارع بخرق بالية، أو بلا لباس معرضين مؤخراتهم للشمس والذباب، يبولون ويتغوطون في الطريق، نسوتها تغسلن أمام البيوت، ورجالها يعملون بالصنعات، يحششون كل مساء، يضاجعون زوجاتهم كل سبت، ويضربونهن كل يوم، قليل من أهلها من نال العلم أو حتى القليل من الدين، يبصقون ويشخرون ويسبون حتى دينهم!

(6)

لكن كل منطقة ولها علامتها المميزة، كبيرها، وولي أمرها، كلمته كحد السيف، وأمره نافذ، أحيانًا يكون الأقوى إيمانًا، أو الأكبر سنًا، أو الأكثر مالًا، أو ككبير منطقتنا: حسام الشاطر، وهو لص هجّام، ومشاغب مشاكس، مشاجراته متعددة، ومتنوعة بالأسلحة البيضاء أو النارية، حتى بالمتفجرات يدوية الصنع.. يتاجر بالسلاح والمخدرات، وتحت إمرته لصوص كل المناطق المجاورة، ويدفع الأطفال للعمل عنده إما بالتسول أو بالنشل..

وكان حسام لا يخاف الموت ولا الحياة، لا يهاب شرطة ولا إله، وكان فاسقًا فاجرًا؛ يأتي النساء والرجال والأطفال بعنف، حتى الموتى لم يرحموا منه، فقد كان يضاجع الجثث!..

لا أشك أن حسام كان ذا لوثة في عقله، والشيخ سرحان يقسم أنه ملعون، والله غضبان عليه إلى يوم الدين..

كل أهالي المنطقة يعرفون حكاية حسام وسر اشتهاءاته المنحرفة والشاذة، يهمسون بها إلى بعضهم البعض..

يقولون أن والده مارس معه اللواط في طفولته المبكرة، واعتاد فعلها معه بغاءً، ولمَّا مات أبوه كان حسام في الثامنة عشر، ضاجع جثة أبيه وأخذ يضربها ويجلدها، ومن يومها وحسام على حاله لا يستحى الله، ويزداد فجورًا وجورًا..

معظم أهل المنطقة من ضحاياه، وأهل منطقتنا ودعاء لا يثورون!..

(7)

وكان الأخ فكري القلعاوي من ضمن ضحايا الشاطر، يكبره الثاني بخمسة عشر عام.. وكان فكري في صباه فاسقًا إلى أن هداه الله، مرافقًا لحسام في كل شيء، يدخنون الحشيش ويبيعونه، يسرقون ويهربون، يتشاجرون، يقول أهل المنطقة أن حسام اغتصب فكري في عرصة بيت، ثم اعتادا الأمر وقاما بممارسته سويًا عن تراضٍ، ويقال أن علاقة وجدانية من الحب المرضي ربطت بينهما، وأصبحا لبعض كالرجل والأنثى، لا يفترقان، وانتقل فكري للعيش مع حسام في بيته واستمر الحال سنوات على هذا المنوال..

ثم جاء اليوم الذي هجر فيه حسام رفيقه فكري لأجل امرأة، ولشدة الأسف والحسرة كانت هذه المرأة هي بهية بنت عمرو الحواني، وأمها -رحمها الله وغفر لها- كانت تعمل غازية في الموالد، وكما قال المثل: "اقلب القدرة على فمها تطلع البنت لأمها".. وبهية هي الزوجة الثانية لأميرنا التي تزوجها_ لشهوة في نفسه_ على أختي رضا، وكانت بهية مرآة تعكس صورة الشيطان، كانت بضة لينة شهباء كالحليب، ذات شعر فحمي طويل، وعينين ساخنتين تقطران بالجنس، وكانت تسير في أزقة المنطقة بغنج تبيع حلويات أبيها، يشتهيها كل قاطني المنطقة، حتى أنا اشتهيتها، وكثيرًا ما كنت أضاجع زوجتي وصورة بهية في ذهني، واستمر هذا حتى بعد أن تزوجها الأمير..

كان الشيخ سرحان يعرف أنه عقيم -خاصةً وأنه طبيب- وكان يعرف أن ثمة علاقة بين بهية زوجته وبين حسام!، لكنه لم يحرك ساكنًا وهذا غريب، والأغرب أنه لم يحرك ساكنًا_ أيضًا_ بعدما

حملت بهية من حسام ووضعت حملها، بل كتب الولد باسمه: صابر سرحان الجخاخ..

احتار أهل منطقتنا في بنوة صابر، فمنهم من قال بأنه ابن الشيخ ومنهم من قال بأنه ابن الشاطر، لكن الجميع اتفق أنه ابن بهية، فنودي في منطقتنا يا ابن بهية..

ولمّا كان حسام يتردد على بيت بهية في غياب الشيخ، أثار ذلك غيرة فكري، فما كان منه إلا أن تبجح على حسام، واندفع معه في شجار، يشهد به أهل المنطقة كلهم، وكانت نتيجة الشجار أن فقد حسام إحدى عينيه، وفقد فكري ما تبقى من ذكورته، وقبض على الأثنين وسجنا فترة من الزمن، ارتاح فيها أهل المنطقة، وتحسنت الأوضاع قليلًا وأصبح الشيخ سرحان كبير منطقتنا الذي يلجأ له الناس في الملمات، وتغير الحال، فأصبح المسجد ممتلئًا دائمًا وكثر الإخوة من ذوي اللحى..

(8)

خرج الاثنان من السجن، حسام كان أشد فجورًا، عاد إلى المنطقة وجمع فلول صحابته وأقاما عصبتهم من جديد، وعاثوا في المنطقة فسادًا.. أما فكري فقد هداه الله في محبسه على يد جماعة من الأخوة، كانوا معتقلين لأسباب سياسية، ولكن لفقت لهم تهم حيازة السلاح وترهيب الناس..

في تلك الفترة التي قضاها حسام في السجن، كانت بهية قد هربت من بيتها مع أحد عاشقيها، وطلقها الشيخ غيابيًا، وظل صابر في رعاية الشيخ، يربيه وينشأه نشأة دينية سوية، وكان صابر لم يتعد العاشرة من عمره بعد..

وحين علم حسام بهجر بهية للمنطقة برمتها، استبد به الغضب وخطف الطفل ونال منه باغتصابه حتى مات الطفل، فرمى بجثته في مصرف الماء..

ولمّا علم الشيخ بما جرى، لم يغضب كعادته!، إنما كان حليم وذهب إلى حسام في بيته وجلس معه سويعات ثم خرج الجخاخ مستبشرًا..

كل هذا وأخونا فكري مسالمًا يصلي معنا في المسجد، ويتلو القرآن، وكان قد ألتحى وترك طريق المعاصي، وفتح له الشيخ سرحان مغسلة يترزق منها، وكان يدفع -كغيره- لحسام الشاطر إتاوة دون تذمر كما أمره الشيخ..

(9)

اجتمعنا في المسجد كعادتنا ودخل علينا حسام الشاطر بحذاءه دون ورع أو خشية، وطلب الشيخ فخرج معه الشيخ حاملًا حقيبة، ومشيا خطوات إلى السيارة فأخرج حسام من سيارته جوالًا بادله مع الشيخ بالحقيبة، ثم تبادلا بعض الكلمات والسلام، ورحل حسام!..

يتكرر هذا الحدث كل شهر وسط تعجب الإخوة_ لكن دون أن يتفوهوا_ كانت تدور في عقولهم تساؤلات: ماذا يحدث بين أميرنا وهذا الفاجر؟، أوليس هذا من استحيى زوجة الشيخ واغتصب ابنه حتى الموت؟!..

لم يكن يعرف أحد ما يدور سوى الأمير والشاطر وأنا.. فقد أخبرني الأمير: حسام يأتي إلينا بمتفجرات والجماعة تدفع له في المقابل، وسنستخدمها في محاربة أعداء الله داخل بلدنا، ثم أردف: يا بُني الغاية تبرر الوسيلة..

وفي إحدى المرات التي كان يلتقي فيها الشيخ والشاطر اختلفا وحدثت بينهما مشاداة في الكلام وتبادلا فيها السباب وخاضوا في أعراض بعضهم البعض.. عاد الشيخ إلى المسجد وهو ملآن بالغضب آخذًا بشتم حسام وإمطاره باللعنات وتوعده بجهنم وبئس المصير..

تحمس فكري لغضب الشيخ وثار غضبه متذكرًا ما كان بينه وبين صاحبه القديم..

اقتربت من الشيخ وطلبت منه أن يهدأ وينتظر حتى ينفض الجمع لأحادثه في أمر مهم، وبالفعل هدأ الشيخ، لكن صاحبنا فكري لم تهدأ ثورته..

(10)

انفردنا شيخي وأنا في حمام المسجد.. وقلت له: لقد أرسل لي خليفتنا برسالة.. فسألني: وما مفاداها؟.. فقلت له: يا بُني الغاية تبرر الوسيلة.. واستللت سكيني ونحرت عنقه مكبرًا: الله أكبر..

غسلت يدي من دم شيخي، وتوضأت ثم صليت ركعتين لله، ثم فتحت مكبر الصوت وخطبت من داخل مسجدي مسجد الفاروق: الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه تابعبه ومن تبع هداه إلى يوم الدين.. ولا تحسبوا الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياءً عند ربهم يرزقون.. لقد ذبح عدو الله حسام الشاطر مولانا الشيخ سرحان، فيا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين كفروا واقتلوهم، فقد كفر عدو الله حسام الشاطر وأتى الفاحشة والمنكر وعاث في الأرض فسادًا وقتل شيخنا في بيت الله دون خشية من رب العباد..

أول من دخل المسجد كان فكري، عيناه تنفث نيرانًا كثور هائج .. أقسم على أن يقتل حسام الشاطر..

قلت له: حي على الجهاد.. سأل: فإن قتلته؟، قلت: كنتَ مجاهدًا.. فسأل: وإن قتلني؟، قلت: فإنها الشهادة..

خرج فكري مهرولًا يتبعه جمع من الناس، وحاصروا سيارة حسام وهو داخلها فخرج ممسكًا بسلاح ناري متعدد، وأطلق عدة طلقات في الهواء مهددًا، فانتزعه منه فكري وأفرغه كاملًا في صدره، وسط صمت أهل المنطقة وتكبيرات الإخوان، ونظرة عاشق يموت بيد عشيقه..

عن هوس المملوك..

(1)

كان "كونكيرو" مولودًا في سمرقند بأوزباكستان، يشبه إلى حدٍ كبير الكلاب المقاتلة الأمريكية، يدّعى أن له نسبًا بالملوك، وهو دونهم في الشكل والسلوك، بِيعَ في طفولته إلى ثري مترف من بلاد الشام، ثم بيع لأمير جند السلطان وأصبح ساعد الأمير الأيمن وكاتم سره وحافظه، ولقد كان للأمير أحواله وخبثه: فلمّا كان الأمير يضاجع امرأته يأتي بمملوكه "كونكيرو" ويجلسه على الكرسي المذهب، ويأمره بأن يشاهد ويشهد ما يحدث بين أمير الجُند وزوجته، و"كونكيرو" كمراهق كان يستمتع بالمشاهدة، حينما يبدأ سيده بالمداعبة، كان يمذي "كونكيرو" ويشعر برغبة جارفة في المشاركة مع مالكه في السرير، وحينما يبدأ الجماع كان "كونكيرو" يستمني بخياله؛ فقد منعه سيده من استخدام يديه، وحين يصل الزوجان لهزة الجماع، كان يأتي "كونكيرو" سيلان المني دون إرادة منه!.

أما عن سيده فهو ذا خبث، لا يقدر على الانتشاء دون شاهد، ليرضي نزعة إظهارية، يتلذذ بعرض جسده، ممسكًا بقضيبه، وإجبار مملوكه للنظر إليه، ولا تنطفأ شهوته إلا بمشاهدة تعابير الاشمئزاز أو الذعر!..

وأما عن زوجة أمير الجُند فقد كانت مغلوبة على أمرها، لكنها كانت تشتهي لحظات اشتهاء "كونكيرو" لها؛ فكانت تبدي له من الغنج أثناء جماعها بزوجها، ما يأجج شهوته بها واشتهاءه لها!..

وأما عن "كونكيرو" فقد كانت طفولته طفولةً مقموعة، ولم يعرف عن الجنس سوى الوعيد والتهديد به من سيده الذي اشتراه من الشام، وأول بذرة للجنس زُرعت بأرضه كانت مشاهدات مولاه ومولاته معًا بفراشهما، ولقد حصد زرع تلك البذرة في أحاديثه الليلة مع مولاه حول ما يحدث في الفراش، وآراءه في أداء سيده، والإشادة بقضيبه، ومدى روعته، وصراخ سيدته وتأوهاتها. وتمنى في نفسه أن يستمر الحال هكذا إلى الأبد، وأصبحت مشاهداته تلك دافعه للحياة، فكان يقاتل ويقتل في نزاعات المماليك، ويسرق وينهب من مال الشعب؛ حتى يحظى أخر الليل بمتعته المنشودة العاجزة!..

(2)

ربما وُلد "كونكيرو" بجزيرة القرم الروسية ولم يكن من أوزباكستان، وربما -أيضًا- لم يكن يشبه الكلاب الأمريكية، وأن له بشرة بيضاء وعينين زرقاوين وإن كانت إحداهما عطبة، وكان جميل الوجه والطلّة، ولم يدع أن له نسبًا بالملوك والسلاطين، ولم يُبع لثري شامي، بل بيع إلى مملوك مصري معتوق يعمل لدى السلطان أميرًا للجُند، ربما.. لكن الأكيد أنه شاهد وشهد جماع سيده بزوجته، وقد حصل أن سيده منعه عن حضور تلك الليال فترة لتقصير قام به، وأنه استبدله بمملوك حدث كان لامع الذهن حاد الذكاء، فقرر "كونكيرو" أن يأتي بالأمر الجلل، ودفعته رغبته بمشاهدة تلك الليال مرة ثانية، إلى أن انتهز إحدى الليال وارسل مكتوب إلى قصر السلطان يطلب منه المقابلة لإخباره بنبأ مؤامرة تحاك ضده، فأسرع السلطان بالقبول، واستقبله بقصره، فأخبره: أن سيده أمير الجُند قد أمره بقتل السلطان، واتفق مع السلطان على خدعة يمكرون بها على أمير الجند ويردوا بها

كيد الخائنين.. وهي أن يتنكر السلطان في زي تاجر شركسي ويخرج من القصر في هذا الزي، ويعود "كونكيرو" إلى سيده ويخبره بأنه نجح في قتل السلطان، وأن السلطة اصبحت قاب قوسين أو أدنى من سيده، ثم يخرج به، فيتربص به السلطان ويقتله بيديه ويكون عبرة لمن اعتبر.. فوافق السلطان أن يُعتق "كونكيرو"، ويتولى منصب سيده، وأن يُزوجه السلطان سيدته –زوجة أمير الجُند- التي شغفته حبًا.

وفي ستار الليل خرج "كونكيرو"، والسلطان في زي التاجر الشركسي سويًا، واختبأ التاجر في أحد الأزقة المظلمة، وتوارى عند حانوت إسكافي مغلق..

وذهب "كونكيرو" إلى مولاه الأمير وأخبره أن الملك أرسله في طلبه؛ لأنه مملوكه الأثير، فسأل أمير الجُند عن سبب الاستدعاء، فقال "كونكيرو" أن الملك أراد أن يجازيه خيرًا، ويمنحه أرضًا جديدة وسلطةً أكبر.. وبالفعل خرجا سويًا، ومشيا حتى اقتربا من حانوت الإسكافي.. فاقترب "كونكيرو" ونادى التاجر: أيها الشركسي اقترب. فاقترب السلطان، واقترب أمير الجُند مشدوهًا.. فسحب "كونكيرو" سيفه من الغمد وشهره في وجه الملك!، فقال السلطان: أهي الخيانة؟، فقال "كونكيرو": إنما الدنيا، وتلك البلد وسَّية، والحكم فيها لمن غلب.

وقتل "كونكيرو" السلطان أمام مولاه الأمير، ثم ركع أمامه وألقى قسم الولاء، وناداه بالسلطان..

(3)

بعد أن أصبح المملوك أميرًا للجند، وأميرُ الجند حاكمًا للبلاد، والملك شهيد سذاجته.. استقر الحال، وعادت المياه إلى مجراها، وتوالت ليال السلطان الجديد مع زوجته الملكة على مرأى ومسمع

من أمير الجُند "كونكيرو"، يشاهد ويستمتع ونشوته تتأجج، وشغف الملكة به يزيد..

استمر الحال هكذا بضع سنوات: أمير الجُند "كونكيرو" يقود الغزوات، ويجبي الضرائب، ويحاكم الناس، ويسأل الكل ولا يسأله أحد، والسلطان سنه يزيد وبدأ يشيخ، فقلت المرات التي كان يضاجع فيها زوجته، فبدلًا من مضاجعة كل ليلة، أصبحت كل أسبوع، ثم كل شهر، ثم كل شهرين.. وهكذا حتى تلاشت تمامًا.

أصاب التبرم "كونكيرو"، فقد كان لا يطيق غياب معشوقته الملكة، أكلته الشهوة وبلعه الاشتهاء؛ فتحدث مع السلطان في الأمر، لمّا قلّت لقاءات الملك بزوجته، ثم انعدمت؟ فغضب منه الملك وزجره، خاصةً بعدما اقترح "كونكيرو" أن يُحضر الحكيم لعل هناك علةً أصابت السلطان!.

وفي إحدى الليال أرسلت الملكة جاريتها في طلب أمير الجُند "كونكيرو"، وحين حضر مع الجارية، أدخلته الجارية حجرة الملكة، فوجدها عارية متممدة على السرير، بجسدها القمحي البض، تعجب "كونكيرو" في البداية، أو أصابه بعض الخوف، فتمالك نفسه ثم جلس على كرسيه المعتاد دون أن ينبس ببنت شفة، فنهضت الملكة مشدوهة واقتربت من "كونكيرو" حتى لامسته وقالت بدلالٍ: هيتَ لك.. فأشاح "كونكيرو" بوجههّ!، فسألت: ألا تشتهيني يا "كونكيرو" العزيز؟، قال: بلى أشتهيكي وأكاد أن أموت شوقًا وأنا أراكِ عاريةً وحدك الآن ولا أفعل شيئًا.. فسألته متعجبةً: أتخاف أن تخونَ مولاك؟، فأجابَ: بل أخاف أن أخون هذا الكرسي. وأشار إلى الكرسي المُذهب الذي اعتاد الجلوس عليه وهو يشاهد ويشهد ليال عشق

سيده لسيدته، ثم غرق في عرقه وانتفضت عروقه من الغضب ودفع سيدته وخرج من الغرفة وعينيه تقطر شرًا..

(4)

في صباح اليوم التالي دعا "كونكيرو" قائد الحرس، وكبير الجيش، والوزراء، ودعي السلطان أيضًا.. فعلم الجميع أن الأمر طارىء لا يحتمل التأجيل أو التأخير، فظن البعض أن للأمر علاقة بقلة القمح، وظن آخرين أن المسألة بخصوص حدود البلاد المُهددة، أو لعلها تكون بسبب تفشي المرض بين الشعب؛ فالأسباب كثيرة وقديمة لكن مثل هذا الاجتماع لم يحدث منذ زمن بعيد، وفوجيء الجميع لمَّا أخبرهم "كونكيرو" أن السبب من وراء الاجتماع ليس هذا ولا ذاك، إنما الأمر بخصوص الملك والملكة.. فانتبه الجميع، وعرض عليهم "كونكيرو" المشكلة: إن الملك اعتاد أن يضاجع زوجته كل ليلة منذ اشتراني، كان يُجلسني علي كرسي جميل ويجعلني أشاهد وكان يستعرض قضيبه وأنا أُثني عليه، ويتفنن في مداعبة زوجته ويستشيرني، وكنت أستمتع وأستمني وأنتشي، وظل ثلاثتنا هكذا كل ليلة في كل العصور، حتى انقطع الملك عن مضاجعتها ربما لعطب ما بقضيبه، فانقطع استمتاعي وساءت حالتي.. والآن أعرض عليكم الأمر برمته وأنتم ساسة البلاد ووزراءها، ولا أجد سوى خيارين: إما أن يعود الملك لعادته فيستقيم الأمر، وإما أن يعزل ويلزم بيته.. والكرسي من وراء القصد وأنتم تشهدون!.

حاول الملك أن يُبرر الأمر وأخذ يسترسل في عرض أسباب واهية، وتباحث الجميع في الأمر وقدموا اقتراحات.. ثم استفتاهم "كونكيرو".. فغلبت كفته واتفق الجمع على عزل السلطان العاجز

وتطليقه من زوجته وأن يلزم بيته القديم تحت حراسة العسس، وتولية الناصر "كونكيرو" أمير الجُند حكم البلاد وتزويجه الملكة..

(5)

تمكن "كونكيرو" من الحكم وأصبح السلطان ،وقائد الجيش ،وإمام المصليين، وقاضي القضاة، فسن القوانين، ودخل الحروب وانهزم، ثم أعاد الحروب وانتصر، وعقد اتفاقات سلام بينه وبين عصابات الشطار، وسجن وقتل كل معارض له، واستمر حكمه أكثر من ستين عام.. حاولوا قتله مرات عديدة فكان يبعث من جديد، وضعوا له السم في مشربه؛ فمات عشرين يومًا ثم بُعث من جديد، قتلوه وسط جنده؛ فمات عشرة أيام ثم بُعث من جديد، حاكموه وأعدموه؛ فمات سنتان ثم بُعث من جديد.

(6)

اشترى "كونكيرو" قزمين فرسًا ومملوكًا، وذهب إلى زوجته الملكة، أهداها الفرس فربطته بباب حجرتها، ودخل الحجرة بالمملوك الجديد، وأمره أن يتجرد من لباسه، وأمر ملكته أن تخلع ثيابها، وأجلسهما على فراشه وأتخذ الكرسي المُذهب مجلسًا، وأمرهما أن يتضاجعان، وأخذ يشاهد ويبتسم، فانتصب قضيبه، وحين وصل المملوك والملكة إلى هزة الجماع انتشى "كونكيرو" وأتاه سيلان المني دون إرادة منه فصهل الفرس المربوط بباب الغرفة..

عن هوس الثري..

(1)

"حينما تشتد قسوة الحياة؛ فإن الكائنات الوضيعة تمتلك فرصةً أكبر في البقاء، أما الكائنات النبيلة فتموت!"

درسٌ في الأحياء.

(2)

"وماذا بعد؟"، كان هذا هو السؤال الذي يُلح دائمًا على حاتم قبل نومه!، اعتاد أن يسأل، لكنه لم يعتد أن يندهش..

يبدو أنه قد أصابته البلاده؛ فكل شيء ملكه، تقريبًا، إلا الحكمة، لم يصب منها غير الحكمة النفعية، كخبير بالتجارب يعي ألا وجود للسعادة في هذا الكون، الذي يُعرِّفه بأنه: محض هراء، الحياة تُعاش من أجل المتعة، فكان يقاتل في كل يوم من أجل أن يحصل على أكبر قدر من النشوة!.

حاتم، شيخ في الستين من عمره، أغنى رجال بلده، يحتكر سوق الطاقة، يعيش في الظل؛ فهو يكره الإعلام، الصحافة، لكنه يحب السيارات والأطفال!.

(3)

في الصباح، يركب سيارته المصنوعة خصيصًا كوحدة فريدة له، ينطلق بها على طريق البحر، بأقصى سرعة يوفرها الطريق، وبعد أن يمل.. يوقف أحد الشباب العابرين ويمنح له السيارة كهدية، ثم

يتصل بالشرطة ويبلغ أنه قد فقد سيارته أثر تعرض قاطع طريق له وسرقته بالقوة في وضح النار ويعود إلى قصره سيرًا على الأقدام، وهو يلعن الناس، وطمعهم وسرقتهم لأمواله، مبتسمًا بخبث وراحة!.

كان الغريب في مسكنه هم الخدم، جميعهن طفلات دون العاشرة، يعملن بكل شيء، المطبخ، تهذيب الحديقة، نظافة المكان.. كل شيء حقًا، حتى حجرة نومه..

وفي المساء، تصطف تلك الطفلات صفوفًا، ويسير بخطوات وئيدة بينهن، ثم يختار إحداهن، ويصعد بها إلى حجرة نومه!.

كلُ الناس يعرفون.. كل الناس يسكتون!..

سمعنا مثلًا أن الشاب الذي يأخذ السيارة كهدية، ثم يُقبض عليه، يحصل على المال من أحد محامي حاتم، ويقر بجريمة السرقة بالإكراه التي لم يقترفها، لكن كيف الحال مع غلمانيته وخادماته؟!.

(4)

ينزل حاتم درجات سلمه الرخامية، مرتديًا الروب الحريري، يسير ببطء، يسعل حتى يصل إلى حجرة الاستقبال، يجلس أمامه كهل ومعه ابنته، طفلة في السابعة، يتفرسها حاتم:

اسمك إيه يا حلوة؟

بسيمة..

يلتفت للأب:

هل تجيد الطبخ أو التنظيف؟

لا، ولكننا بحاجة إلى المال يا سيدي..

يفكر حاتم بتأنٍ، ويشير إلى إحدى الطفلات الواقفات، فتذهب، وتعود ببعض المال، تعطيه للأب وتأخذ بسيمة، يأخذ المال وينظر إلى حاتم برجاء:

هل سنكتب الورقتين اليوم؟

على حافة العدم..

(1)

على إثر كابوس رآه "س"؛ استيقظ مفزوعًا، هل تغير؟، أم عاد إلى كونه الشخص الذي لم يستطع أن يكنه طوال أربعين عامًا قضاها على تلك البقعة السوداء من الأرض؟

فلقد رأى جيشًا من الصراصير يحاصره حتى لا يجد المفر، ومن ثم يأمرهم القائد الصرصور أن يلتهموه، فيبدأوا بالتهامه ببطء ولذة، يصرخ دون جدوى، يشعر بخدر في أصابعه، تؤكل أطرافه، يصرخ دون صوت، يبكي بكاء مكتومًا، يبول في بنطاله، ويستيقظ مرتعبًا!.

إن "س" يحيا حياةً بائسةً، يسكن مع أسرته المكونة من أب وأحد عشر أخ، وأم متوفاة من زمن بعيد، البيت مليء بالكراكيب، فهكذا يحيا الفقراء!.

يقص "س" ذلك الحلم الغريب الذي أصابه بالهلع إلى والده، وقد كان والده شيخًا أتاه الله من علمه الكثير ومن الرزق القليل!، استمع الأب إلى قصة تلك الرؤية من ابنه، وقال: "يا بني، لا تقصص رؤياك على أحد؛ فحضور الصراصير من عمل الشيطان والجن، وهي ضارة ومؤذية بحياتها ومماتها، لكنك يا بني محسود، والحسد مصابك من قريب لك، ربما أخ من إخوتك، فإن قتلت الصرصور؛ قتلت الحسد؛ وإن قتلك الصرصور؛ قتلك الحسد، وتقول إن الحاسدين جيش وللجيش قائد، وهو الصرصور الأكبر، وهذا أمر مُحير، وما أوتيت من العلم إلا قليلًا!.."، ثم صمت الأب وغاب في غفوة!.

(2)

دام هذا الكابوس ليال متوالية؛ فهرب "س" من النوم بدوام السهر، لكن الكابوس لم يتركه، ظل يطارده في صحوه، أصبح يرى الصراصير في كل مكان: البيت، الشوارع، الحانات، والمواصلات.. في كل مكان وفي أي مكان..

كره "س" الصراصير، وكره الكراكيب في بيته، فدائمًا ما كان يباغته صرصور من تحت منضدة أو من داخل دولاب ملابس، أو يجده في برطمانات الشاي أو السكر!.

قرر "س" التخلص من كل الكراكيب: تلك التُحف الشعبية الرخيصة، الكتب الدراسية، الأثاث القديم.. لكن هذا لم يكن كافيًا!

كان يشعر أن هناك من البشر من هم بمثل قيمة الكراكيب: أشخاصٌ بلا قيمة ولا نفع، لا يدركون من أمرهم شيئًا، تختلط عليهم الحقائق بالأباطيل، إنهم فقط يسببون الازدحام!، تخلص "س" منهم قطع علاقاته بكل من يعرف!، والتزم حجرته..

(3)

من هو "س"؟، ماذا تمثل تلك الصراصير؟، ما عددها؟، متى يقتلها أو تقتله؟، يفكر "س".

يسقط مغشيًا عليه وهو أسير تلك التساؤلات، والهلاوس تحاصره كما حاصرته الصراصير في المنام..

يستيقظ "س" بعد ليلة هادئة دون أحلام.. الجو مُشمس، والشوارع هادئة، يبتسم، يشعر بالانتصار، يتنفس بعمق: لقد تخلصت من الكراكيب، لقد كان كابوسًا.. فقط كابوس..

يخرج من حجرته ليلقى أحد عشر من الصراصير يقودهم صرصور كبير بحجم رجل يأمرهم بالتهامه، يقتربون، يحاولون أن يحاصروه، يهرب إلى الشارع فيجده مزدحمًا بالصراصير: المارة، التجار، وشرطي المرور..

على حافة الاحتمال..

يستيقظ "س" مثقلًا بالوجع، الغربة، والأمل.. لم يضبط ساعته المنبهة ليلة أمس؛ حتى يأخذ من النوم كفايته، آملًا أن يكون اليوم أفضل؛ فاليوم إجازته الأسبوعية من عمله الممل في المشفى الحكومي كطبيب للطوارىء، لكنه لم يُدرك أنه استيقظ قبل موعد العمل المعتاد، رُبما بساعتين!..

يعتزم "س" على الاغتسال داعيًا الله أن تصعد المياه إلى طابقه السابع الذي يقطنه، وبالفعل يجدها في انتظاره، دافئةً كما يفضلها، يستحم، ويتوضأ، داعيًا مرة أخرى ألا تصعد خطاياه إلى السماء السابعة، يرتدى ملابس نظيفة، ثم يمشط ما تبقى من شعره، ويتعطر.. يفرش الأرض بسجادة الصلاة، ويضع بيضتان على النار، فيسمع صوت جارته في الشرفة المواجهة لشرفته، يتحرك ببطء وبحذر ليشاهد من بين فتحات الشباك جارته، ينظر إلى فتحة قميصها فيرى ذلك الوادي الممتد بين جبلي ثدييها.. تحترق البيضتان على النار فيسرع لإطفائها، ويخرج ناسيًا الصلاة، ناسيًا الطعام!..

يقف "س" أمام المصعد يضغط على الذر في طلبه، وينتظر دقيقة أو دقيقتين، يلتقي في تلك الأثناء جارته الصماء حاملة قطتها العرجاء، يبتسم إلى جارته فتبادله الابتسام: صباح الخير!.. يصل المصعد فيركب ثلاثتهم، يداعب رأس القطة فتصدر فحيحًا شبيه بفحيح الأفاعي، يخبرها بمزحة الرجل الذي وجد في الطريق حقيبة بها نقود، فتموء القطة مواءً غبيًا: القطط لا تلقي النكات!.. على باب

المصعد في الدور الأرضي معلق لافتة كتب عليها بخط معوج: عفوًا.. المصعد لا يعمل!..

يسير "س" بشارعه البالغ مائة خطوة، ثم ينعطف يمينًا ويسير خمسين خطوة؛ ليجد كل الحانات مغلقة!، شارع مكسور بمائة وخمسين خطوة خاوٍ إلا من زُبالات الناس الملقاة على طول الطريق، وشجرة يتيمة يسقيها شيخٌ وكهلٌ وطفلٌ ببولهم!..

يتخذ "س" يسار الطريق، ويسير بخطوات متعثرة، ويلتقى بعض المارة القادمين في الاتجاه المعاكس له، يقرر أن يلعب لعبة البُصاق: وهي أن يبصق أمام أقدام المارة ويحصي كم منهم سيتفادى بصقته، ومن سيدوسها، ومن سيعترض، وربما ازدادت إثارة اللعبة وضربه أحدهم!، يبدأ باللعبة، وهو يردد: البصاق خطيئة وكفارتها دفنه!، الناس لا تنتبه!، لا تشاركه في لعبته المرحة!، والأرض تشرب البُصاق!..

يفكر "س" في "باندورا". تلك الفتاة اليونانية التي أحضرت زوجها إلى المشفى الذي يعمل به، وقد كان زوجها يحتضر إثر حادث سيارة!..

(كان زوجها يعبر الطريق أو كان واقفًا، كانت هناك سيارة مسرعة، يقودها شخص غبي، صدمته السيارة، سقط الزوج، هرب القاتل الغبي.)

(يالها من مصادفة جميلة، جعلت باندورا تأتي إلى المشفى، وجعلتني بطلًا أحاول إنقاذ الزوج، لكنه مات بين يدي، بين دموعها، على رأس الميت: هدأت من روعها.. احتضنتها.. قبلتها.. هكذا كُنا دقيقة أو دقيقتان.. ثم توقفت وقالت بغنج: ربما غدًا.. أو بعد غد.. أغلقت صندوق روحي على الأمل!..)

يسأل "س" هل سيكون اليوم أفضل من البارحة؟

يعبر "س" الطريق السريع، وهناك سيارة مسرعة يقودها شخص غبي.

على حافة الحرية..

(1)

يسير الفأر بمحاذاة الحائط، خطوة للأمام.. خطوتين إلى الخلف، يصطدم جسده الضئيل في ركن الحجرة المعتمة، تحاصره قطة ممتلئة بموائها، أنفاسه المتلاحقة تصعد بصدره الرضيع إلى السماء السابعة، ثم تهبط به إلى سابع أرض، تنظر القطة إليه في تبسم، تبرق عيناها اللوزيتين.. يجمد في مكانه من الخوف.

(2)

يلتقط العندليب الحبوب من الأرض، ينبش التربة بخفة، في غياب حسه الأمني، يشدو بلحن جنائزي، أثناء اقتراب أفعى تزحف على بطنها بخبثٍ، تصنع حوله عددًا لانهائي من الدوائر، العندليب لا يشعر بها إلى أن تصطدم عيناهما.. يجمد في مكانه من المفاجأة.

(3)

يتوسط القمر السماء، مبتعدًا قدر استاطعته، حتى يفسح مساحةً للنجمات أن تسطع، لتتحرر مصاصة الدماء الشيطانية، وتضرب بجناحيها الهواء صارخةً من اللذة التي تنشأ من شغفها بالصيد، تلمح صيادًا يتتبع غزالةً بدهاء، تسقط مصاصة الدماء الشيطانية فوقه بجهلٍ، تستند بكفيها على كتفيه، يلتفت إليها، تغرس نابيها في رقبته لتمتص الدماء.. يجمد في مكانه من الدهشة.

(4)

يتمدد "س" على السرير عاريًا، يدخن سيجارة، يحكّ قضيبه مبتسمًا، في انتظار أن تخرج سيدته من الحمام، تخطو وهي ملتفة بالمناشف، تنحني عليه فتسقط منشفة، تُقرب شفتيها إلى قضيبه، فتسقط منشفةً أخرى، تموء في غنجٍ، وترسم بيديها حول قضيبه عدد لانهائي من الدوائر، ثم تمتصه بشره.. يجمد في مكانه من النشوة.

إلى صباح..

(1)

إنه صباح مختلف، أبتسم.. رغم أنني بين اللعينين عن يميني زوجي ناجي، وعن شمالي مولانا مُصعب! لا أدري لماذا أبتسم؟ ربما لأن هذا الصباح سأخرج إلى الطريق لأول مرة دون العباءة والنقاب، حتى الحجاب من دونه!..

أشعر كأنني ما زلتُ عارية! لا أرتدي سوى هذا الفستان القصير.. واهٌ كم أحبه! لكنني أكره هذا الحزام المؤطر حول خصري.. أمقته فهذا حقي، ولا أخشاه فهذا قدري..

هل أبتسم لأنني قد عرفت معنى اسمي الآن؟.. الآن فقط أدركت الصباح، واسمي "صباح"..

أم أبتسم من أثر ليلة البارحة المُخجلة جدًا، والجميلة جدًا.. نعم أحببتها، بل عشقتها..

لا أنا أبتسم لأنني أتذكر صباحاتي الماضية، التي لا تدعو للابتسام على أية حال.. لايهم؛ فالتذكر يولّد الابتسام، حتى وإن كانت كل الذكريات حزينة؛ فإن الذكرى تنفع المؤمنين كما قال لي مُصعب، وما أنسانيه إلا الشيطان كما قال لي ناجي!

(2)

صباح مولدي كرهَ والدي شرف منحي الحياة، واعتبره سلبًا لشرفه الخاص، وتمنى في نفسه لو كان بمقدوره وأدي بيده، وظل هذا

الخاطر يجول بباله حتى أسلمني بيده إلى حلاق الصحة؛ ليئد طبيعتي، ويسلبني ما وهبني الله، سبحانه الوهاب، أحدث الحلاق ذلك التشويه الذي يكمن بمكمني، وكأنه سلبَ البحر ملحه، أو طمس الشمس في عين النهار..

آمال وأماني، صديقتان الطفولة لم يكونا أفضل حالًا مني؛ فنحن أبناء قرية واحدة، نخضع لقدرٍ واحد.

صبيحة ذهاب ثلاثتنا إلى كُتّاب الشيخ "مرارة"، وقتذاك لم أكن أتجاوز السادسة بعد، تعثر بصرنا بأساس دار يحبو ببطء حتى يقام، كنا ندعوه في بلدتنا "بسطة"، وكان علي ابن الشيخ مرارة يلعب على البسطة: ينادي، يصيح، ويضرب بيديه.. محاربًا طواحين الهواء.

ضحكنا منه برغبةٍ داخلية مُلِّحة بتقليده واللعب معه!، نظر إلينا بنظرة الخبير المتمرس، ثم قام بتقسيم الأدوار: رسم لأماني دور الأم؛ فلقد كانت ذات ملامح قاسية وبنية جسدية مخيفة، وأسند لأماني ولي دوريّ الابنتين، وتفرّد هو بدور الأب..

لعبنا ورقصنا وقتًا، ثم قطع "علي" هذا المرح وأدار ظهره لنا، مواجهًا الطريق الوعرة، وقال بمبالغة: هيا يا أماني خُذي البنتين إلى النوم؛ فلا بُد من استيقاظهما باكرًا للذهاب إلى المدرسة..

حل الصمت لحظةً، ثم ابتسمنا، وتهادينا بالجري اللطيف كلنا، ونحن نُردد بفرحٍ: المدرسة.. المدرسة..

اقتحمنا هادم أحلى اللذات ومفرّق خير الجماعات الشيخ مرارة بعصاه الخيزرانية؛ فبدد نسيم المرح، وخلق غيمة عظيمة بظلّه وكأنه مارد جني، ثم أمطرنا بلسعاتٍ من عصاه، لم يكن هذا هو الفصل الأخير من لعبتنا المسرحية، بل أتممها والدي في دارنا بمشهد

مأسوي انتهى بأن شج رأسي، وحطمني بكسور متفرقة في جسدي الذي كرهته!..

(3)

أتذكر أيضًا صباح يوم غائم، ظهري يؤلمني كما لو كنت أحمل صخرةٍ ضخمة وأصعد بها جبل، وشعور مُلّح بالغثيان كغريق بحر، لكن قمة الألم كانت في سفحي، حيث فرجي الذي يقطن بين فحذي هذا الجزء الفائز بالتحريم كما قالت أمي، قاومتُ خوفي غير المبرر، وخلعت لباسي؛ حتى أرى مصدر هذا الألم المخيف، أشعر أنني منسية في كهف سنينًا عددًا، اصطبغ الزغب بالأحمر القاني، انتابني الخوف ممزوجًا بالاستياء والحيرة، وكان السؤال:

كيف أُصبتُ في هذا الموضع؟

هل أحدثته الندّاهة؟

أم أبو جوال؟

أم أن تسللات أخي الليلية إلى فراشي، ولمسه أياي، هي من أنتجت هذا الجرح؟

لم أكن أحكي لأمي أيًا من مخاوفي؛ فلقد كانت لها مخاوفها الخاصة، المتمثلة في صراخها الليلي، ولهاثها المتقطع الخارج من حجرتها، لمّا تستحم كل ليلة خميس؛ ليسحبها أبي إلى الحجرة!..

لكنني تجرأتُ تلك المرة وأخبرتها: أمي.. لقد جُرحت!.

-أين؟

-في العيب. أجبتُ.

ردت مقتضبة دون شرح: إنها العادة.. من اليوم لابد أن تنتقبي..

مع توالي الدوران، ومرور الليال، فالشهور، ثم السنين.. اعتدتُ العادة واعتادتني!..

(4)

صباح منتصف عقدي الثاني، كان دارنا على أهبة الاستعداد لاستقبال ضيف، بدا مهمًا من طقوس النظافة الشاملة، التي قامت بها أمي وخالاتي، وأعفوني منها، حيث رفضوا رفضًا قاطعًا أن أشاركهن التنظيف على غير العادة!..

وفي المساء ألبستني والدتي عباءةً سوداء جديدة ونقاب جديد كانا مهديين لنا من الأرض المباركة، وأسلمتني إلى والدي الذي أجلسني بدوره في حجرة الضيوف، وكان معه رجل في مثل سنه تقريبًا، حسبته في البداية صديق له وتعجبت!، ثم أمرني والدي: أن أرفع النقاب عن وجهي وأسقط الحجاب عن رأسي.. امتثلت لأمره وأنا خجلى، تفرّس الغريب في وجهي ساعة، ثم أومأ برأسه بالإيجاب، فقال والدي: لنقرأ الفاتحة..

(5)

ليلة الدخلة، أسموها ليلة الدخلة لأنها الليلة التي يدخل فيها الخوف، الألم، والحزن..

أدخلني الحجرة ودخلني عنوةً، امتطاني كالبعير، لم أكن أشعر بشيء سوى الألم، ثم المزيد من الألم، فالمزيد والمزيد..

عاملني كما لو أنني قطعة بالية من قماش قديم، وبمجرد انسلاله داخلي كلص دنيء.. تمزقت تلك الخرقة أشلاء ولم يتبق منها إلا اللون الأحمر المفترش أسفلي، والذي انعكس في عينيه إلى نصرٍ مبين!..

(6)

"أخبار.. أهرام.. جمهورية".. كان هذا نداء كل صباح أسفل البيت الجديد، فالآن أنا في المدينة لا الريف. في القرية: لا يعرف الناس القراءة ولا يقرءون، وفي المدينة: يعرف الناس القراءة ولا يقرءون أيضًا!.

أستيقظ على صوت بائع الجرائد كل صباح، أنظر من خلف الشرفة:

هذا الفتى بائع الجرائد يشبه إلى حدٍ كبير "عمر الشريف" بخلاف أن أنفه أكبر قليلًا وبنيته ذات ضعف ملحوظ..

ناجي زوجي لا يقربني إلا بعد أن يمضغ الأفيون ويصلي ركعتين لله، وليلة أمس كرر غزوته الليلية، أخذ يقبلني بفمٍ مقطر بالأفيون، تماسكت حتى انتهى، وهرعت إلى الحمام وتقيأتُ كل ما أحوي.. حتى الدم!..

أخبرني ناجي أنه مسافر صباح غد إلى العريش؛ ليقضي أمرًا، واليوم سافرَ، وها أنا وحدي حتى الفجر..

أطللتُ من الشرفة على عمر الشريف:

-أنتَ.. يا بائع الجرائد.. الوفد؟

-لا الوفد ولا غيره.. فقط الأخبار، الأهرام، والجمهورية.

-اصعد بالأهرام..

واربتُ الباب، سمعت خطواته عند الباب، وتنحنح عدة مرات..

-ادخل يا عُمر..

دخل ببطء، وأراح كتفيه من حمل الجرائد المُعلقة.. ألقاها على الأرض.. وجلس القرفصاء، ثم سحب عدد اليوم من الأهرام..

-انتظر.. حتى آتيك بالمال..

دخلت حجرة نومي، وغبتُ عنه.. تبعني إلى الحجرة ممسكًا بالجريدة.. ووقف ببابها..

"كيف يجرأ على الدخول إلى هذا الحد" قلتها في نفسي وأنا أخلع النقاب عن وجهي، فاقترب بقدمه اليسرى وأخّر اليمنى..

فتحت أزرار العباءة، فانزلقت الأكتاف وسقطت على الأرض..

كنت لا أرتدي تحتها أي شيء.. لم يكن هناك سوى جسدي، وعمر الشريف، والجريدة..

(7)

ها أنا أنصت لأمر زوجي وشيخي، وارتديت الفستان القصير فوق الحزام الناسف..

إنه حقًا صباح مختلف.. أتذكر كل شيء.. كل صباحاتي.. أبتسم..

هل عليّ أن أضغط الزر بينهما الآن؟ أم أنتظر أن يأمراني؟!..

إلى ديالا..

هذه القصة ليست للصغار ولا للكبار، إنما هي لحبات التراب، نسمات الهواء، أخيلة النيران، ولقطرات الماء..

في قديم الزمان.. كانت هناك قرية هادئة، أهلها طيبون، بالزراعة يعملون، بها حقول برتقال، ليمون، وزيتون. ينعم ساكنوها بالهدوء والسكينة، والسلام والسلامة..

يتخلل القرية نهر عذب طويل، يسقي حقولها، واسمه نهر الذهب، وعلى ضفته الغربية كوخ لفلاح فقير يدعى "حمزة"، كهل كبير يعيش مع "ديالا" طفلته الوحيدة، وكانت ديالا بوجه كالبدر، وشعر كالليل، وعيون كالسماء، طيبة كريمة، رقيقة حليمة، بارة بأبيها: تساعده في الزراعة فجر كل يوم، تحمل السلال، وتجمع الزيتون حتى العصر، وبعدها تذهب إلى حديقة قرب النهر لتلاعب الأرانب وتناغي الطيور، وعند المغيب تعود إلى الكوخ، ليحكي لها أبوها الحكايا قبل النوم، يحكي عن: الحق والعدل، الخير والسلام، ويحكي عن الجمال والحقيقة..

استمرت الحياة في قريتنا هانئة جميلة، حتى حلّت الساحرة العجوز ذات مساء، كانت شمطاء شريرة، يتبعها مساعدها قبيح الوجه، غضوب القسمات، أحدب الظهر، وأعور العين..

جاءُوا الى القرية ومعهم الكثير من الذهب، وذهبوا إلى بيت" حمزة" الفقير..

الساحرة: كيف حالك أيها الفلاح الفقير؟

حمزة: نحمد الله؛ نعيش في سلام وخير وفير..

الأعور: كيف؟ وأنتم في فقر كبير!

حمزة: فقير طيب خير من غني خبيث.

الساحرة والأعور ينظران إلى "ديالا" النائمة..

الساحرة: يالها من طفلة جميلة!

الأعور: ما أجملها!

حمزة: هذه ابنتي "ديالا"..

الساحرة: اسمع أيها الشيخ الفقير، نريد أن نشتري هذا الكوخ الحقير، وسنعطي لك في المقابل ذهب وفير..

ثم يخرج الأعور من جيوبه أكياس من الذهب.

حمزة: عفوًا.. لا أستطيع؛ فهذا بيتنا، قريب من مراعينا، أحبه، وتحبه ابنتي..

الأعور: يا رجل، بالذهب تستطيع أن تشتري بيتًا في قرية أخرى، ويكون أكبر وأجمل!

حمزة: لا.. نحن لا نبيع بيوتنا، ولو بكل الذهب.

غادرت الساحرة وهي غاضبة يتطاير بعينيها الشرر، تُهدد "حمزة" وتتوعده بالشر؛ فاستيقظت "ديالا" على عويل الساحرة الصارخ وصياح مساعدها النابح، فقد كانت أصواتهما تشبه عواء الذئاب، وكانت "ديالا" خائفة..

احتضنها أبوها محاولًا تهدئتها، ثم قال:

"يابُنيتي.. هذه الدار دارك، بيت جدك وجد جدك، بيت كل أجدادك.. الأرض أرضك، والزرع زرعك، والنهر نهرك.. فيا أميرتي

الصغيرة.. البيت البيت.. لا تتركيه، ودافعي عنه إلى أخر الحياة، هذه وصيتي لكِ يا "ديالا".

ثم خلع من رقبته عقد طويل معلق به مفتاح كبير، وألبسها إياه..

وبمرور الأيام مرة مريرة.. تمر العجوز والأعور على كل دار في القرية؛ ليعرضوا الذهب على صاحبه، بينما صاحب الدار يرفض مثلما رفض "حمزة".

فتقرر الساحرة الانتقام؛ حيث أمرت مساعدها الأعور أن يحضر لها القدر الكبير، ثم وضعت بداخله ماء من النهر وحفنة من الذهب، وأخذت تلقي بتعاويذ ملعونة؛ فأخذ ماء القدر يغلي ويزبد، وظهر على صفحته وجوه قبيحة مخيفة، وفي المساء أمرت الأعور أن يحمل القدر ويلقي به في النهر، وعندما طلعت الشمس وبدأ الناس يستأنفون حياتهم، حلّت على القرية النكبة..

كانت المحاصيل تحرق، والأزهار تذبل، والفراشات تموت، وأخذ المرض يصيب رجال القرية؛ فمات منهم الكثير..

وفي ذلك اليوم كانت "ديالا" تجلس على ركبتيها إلى جوار أبيها المريض تخبره أنه سيشفى، وهو يمسك بيديها في رقة بالغة، ويبتسم.. ثم فارق الحياة.. و"ديالا" تبكي: يا أبي.. أرجوك لا ترحل..

حلَّ الجدب؛ بسبب تسمم الماء، فمات النبات، وتبدلّت الأحوال: من السكينة والسلام إلى الخوف والدمار..

واستدعت الساحرة أقرباءها الأشرار؛ فاحتلوا الأرض واستباحوا الشعب، وقتلوا الأبرياء.. ادّعوا أن الأرض أرضهم؛ فقطَّعوا الأشجار.. وكان الخراب والخلاء..

وفي ليلة قاتمة سوداء معتمة.. اتجهت الساحرة إلى بيت "ديالا" وألقت بتعويذتها على الدار؛ فإذا به يشعتعل نارًا، احترق الأثاث، كتب أبيها، صورة أمها المتوفاة، واحترقت الذكريات..

خرجت ديالا مع من خرجوا -أثر التهجير التي قامت به الساحرة واقراباءها- من بيوتهم وأراضيهم، وعاشوا في مخيمات القرى المجاورة لقريتهم..

واحتلت الساحرة ومن معها الأرض، وأدعوا أن الأرض أرضهم، والنهر نهرهم، بموجب عقدٍ مكتوبٍ بكتابٍ قديم، وبأن ساحرًا كبيرًا في قرية وراء البحر الكبير وعدهم بتلك القرية إن ساندوه في حربه العظمى..

كلُّ أهل القرية الأصليين، ومنهم "ديالا"، يحملون مفاتيح بيوتهم، موشومين بلون التراب، تفوح منهم روائح البرتقال، حاملين الأرض بين عينيهم، جباههم تعكس الحق..

حاولوا أن ينادوا بحقهم، كلموا كبراء القرى المجاورة، لكن لا حياة لمن تنادي!، والسحرة مستمرون في بناء قرية مسروقة، حتى أنهم تبجحوا على أهل القرية الأصليين، فعرضوا أن يدخلوهم القرية، على أن يعملوا لديهم أجراء، فتفاقم الأمر واشتد الخلاف بين السحرة وبين من بقي من أهل القرية في قريتهم، وقامت بينهما حرب غير متكافئة: السحرة بسحرهم، وأهل القرية بالحجارة..

مرت سبع سنين عجاف، تحسب أن السنة منهم بعشر سنين، كبرت "ديالا"، وكبر الحق معها، فاهتدت إلى أن تجمع كل أهل القرية من كل مخيم يقتنون به، ونادت بلم شملهم، واستعانت بمن آمن بحقهم من القرى المجاورة معلنين: استعادة الأرض..

دخلت "ديالا" إلى قريتها، يتبعها آلاف الرجال والنساء والأطفال.. قابلها السحرة عند النهر في الخامس عشر من تشرين الثاني، وقالت كبيرتهم الساحرة العجوز: يا "ديالا" إما أن تُلقى أو نُلقي نحن.. قالت: بل ألقوا فاستحالت عصيُّهم ثعابين تفح فحيحًا عظيمًا، فألقت "ديالا" بمفتاح الدار، ميراثها من أبيها فإذا به حية تسعى تلقف سحرهم وجورهم وزورهم؛ فاشتد الصراع في ساحة الوغى واستمر، تشهد عليه: الشمس، الحجارة، وحبات الزيتون..

إلى آية..

اليوم تبدو السماء خجلة، زرقتها الصافية على غير العادة تحنو على قرص الشمس وتطبعه قبلة تكفكف عبرات الحزانى وتثلج قلوب المكلومين، تنشر خيوط الشمس على صفحات البحر فتهدأ أمواجه إلا من الزبد.

يجتمع الأهالي من كل صوب، يصطفون على الشاطيء، ينظرون إلى تلك المخلوقة البديعة التي تخرج عليهم من زبد البحر اللطيف، كلؤلؤة تخرج من الصدف، يبسملون مشدوهين.

"إن هي إلا آية للعالمين".

تقترب العذارى، تحملنها وتضعنها بين قدمي كبير القرية، وهو شيخ كبير لا تفارقه عصاه التي تصعق بحكمه.

"ربما سقطت من قارب كسرته الأمواج، أو وضعتها أمها البائسة وهربت خوفًا من عارٍ أو فضيحة، سأتخذها ابنة، ولقد أسميتها آية".

تمر الأيام سريعًا وتكبر الرضيعة المتفردة، فيشتد عودها، وتبلغ من الحسن ما لم يبلغه بشر من قبل، تفتن الجميع بجيدها المرمري، وشعرها الغجري، وثغرها الكرزي المسكر بمجرد النظر إليه، حين تمشي على الشاطىء تبدو الأمواج كسيرة ساجدة. هواها كل رجال القرية وفتيانها، القوي منهم والضعيف، الهرم والشاب، لكن قلبها ظل كجلمود لا يحركه الهوى.

يجلس كبير القرية ممسكًا بعصاه الصولجاني، ويجلسها إلى جواره، كملك ومليكة، والناس يقفون بين يديهم يطلبونها للزواج، وكلما بدأ

رجل بعد محاسنه ليستميل قلبها، أخذ أخر يسفه من أمر الأول، حتى ضحكت هي من حماقاتهم، ورفضتهم أجمعين، وفي مساء نفس الليلة طلبها كبير القرية للزواج، ولكنها صدته بغرور جمالها؛ فأغضبه ردها؛ فضرب بعصاه الأرض ضربة أسمعت العالمين، فتجمع أهل القرية كلهم، وأصدر الكبير حكمه عليها.

"لتتزوج أقبح الرجال عقابًا على كبرها، ابحثوا عن مسخ القرية وزوجوها به، لتكن آية للجاحدين".

وبعد عناء وبحث طويل، وجد أهل القرية ضالتهم في شيخ هرم أحدب الظهر، ضعيف النظر، خسيس الأصل، قبيح المنظر، كريه النفس، وعقيم، يعمل حدادًا، يبدو مرآه كخازن النار قاطب الجبين عابس الوجه، لا يبسم أبدًا، وزوجوها به وسط نظرات القرية المتشفية؛ فكل النساء اللاتي أصابتهن الغيرة انتصرن اليوم، وكل الرجال اللذين كسرهم الكبرياء انتصروا الليلة.

يذهب الحداد إلى عمله مع غياب الشمس، بعد أن تكون صبيتنا حبيسة كوخه القذر، يطرق الحديد وينفث في النار، ولا يعود إلا مع طلوع الشمس.

اعتادت آية على تلك الحياة، تنام النهار حتى تتحاشى الحداد، وتسهر الليل تبكي على قدرها المشؤوم، إلى أن لمحت فتى جميل، يركب فرسًا، ويتبعه حمال يحمل عنه عتاد الحرب، تبتسم إلى الفتى القوي، فيجمد في مكانه فوق فرسه مأخوذًا بجمالها، يتدارك نفسه، ثم يترجل ويسير باتجاه شرفة الكوخ.

"عدتُ توًا من الحرب، لكنني الآن مجرد مزارع بسيط".

أحبت آيه المزارع وأحبها، تبادلا قبلات كالنعيم، وتعاهدا على الحب الأبدي، وكان المزارع يعد دقات قلبه طيلة النهار إلى أن تغيب الشمس، ويخرج الحداد، فيذهب إليها، ويلتقيا بالشوق، يتحابان إلى أن يسكرهما العشق، فيغشى عليهما كل على صدر الأخر، وفي الخارج يقف الحمال يرقب الطريق حتى لا تصيدهم أعين الناس.

استمر الحال ليال، محبوبان يعيشان في جنة على هامش جحيم مستتر، أنجبا طفلًا كالملك المجنح، لا تدري القرية عنهما شيئًا ولا يدري الحداد شيء، إلى أن جاءت ليلة ماكرة، خدعت الحمال، فغفل عن حراسته ونام، فرآها نفر من القرية، واسرعوا إلى زوجها الحداد شامتين في الآية ناقمين على جمالها.

"طهر عرضك يا حداد".

جاء الحداد مسرعًا، والجميع ملتفون حول الكوخ يشاهدون عاشقين ملتحمين كقطعة واحدة غلبهم الحب والنعاس، استشاط الحداد غضبًا لمرآهم وأطلق ناره على الكوخ فأشعله بهم وصغيرهم بينهم نائم، اهتز قلب القرية، وغضبت الشمس وحمئت، وزمجرت السماء، فهاج موج البحر وصعد كجبل ثائر احتضن الكوخ فاطفئه، خرجت آية كمولدها بجسدها الأبيض الثلجي، تحتضن رضيعها، تسير بخطوات أكيدة نحو البحر، تهدأ الأمواج والسماء والشمس، يسجد الزبد تحت قدميها، فتسير فوقه حاملة رضيعها، تنظر إلى القرية نظرة حسرة، وتغيب في البحر.

"منه وإليه تعود".

وفاءً لحبها يقسم المزارع أن يعود للحرب، وألا يقرب الزراعة وإن مات كل العباد. ويتعهد الحمَّال بألا ينام وإن نامت كل الجبال.

ومنذ ذلك اليوم وأهل القرية كلهم واقفين أمام البحر، يصلون ويتضرعون آملين أن تطل آية من البحر.

في سبيل الخبز..

ودّعت طفولتي يوم خرجت لأحضر الخبز؛ حتى تأكل أسرتي!، فيما مضى كانت تلك مهمة أبي، ولكن بدءًا من اليوم أخبرتني أمي أنها أصبحت مهمتي المقدسة والوحيدة!.

ولماذا؟

لأن أباك فقد رأسه في الطريق. أجابت أمي.

جنيهًا يساوي الخبز.. احكم قبضتك عليه.. إياك أن يسقط منك.. يضيع الجنيه؛ تضيع أنت ونجوع نحن. قالت أمي بحذر!..

علّقت شبكة صيد حول رقبتي؛ فقد كنا نصطاد الخبز كالسمك بالصبر، نصطف بطوابير ممتدة مكونين قطارًا بشريًا يتحرك ببطء ولا ينتهي!.

أسير بهمة في الطريق بخطوات تبدو واثقة، أتحسس الجنيه من وقت لآخر وأطمئن نفسي إنه ما زال معي، تصادفت بالفتى الأحول وهو جارٌ لنا، وكنت أتوق للونس، فالطريق طويل وموحش.. حييته وسألته: أن أصاحبه في الطريق؛ لنصطاد الخبز سويًا، ويؤنس أحدنا الآخر.. بعد إلحاح عنيد وافق، واقترح عليّ أن نلعب لعبة الحجر، التقطَ حجرًا أبيضًا وقذفه فاصطدم بجدار أمامنا، وحينها أختفى الحجر داخل الجدار، ثم جاء دوري فالتقطُ حجرًا رماديًا وقذفته، فطار بعيدًا، واستقر في الأرض منبتًا زهرة نرجس جميلة فتية، مما أغضب الفتى الأحول؛ فتناول حجرًا أسودًا وصوبه نحو زهرتي فقتلها وتحطمت زجاجًا منثورًا، ثم تناول بعض الحصى وأخذ يرسلها نحو

رأسي الواحدة تلو الأخرى، وقد كانت تصيبني جميعها بالرغم من حوله الوحشي!، وكلما أصابت إحداها وجهي أحدثت به عيبًا، وما أن تصيب رأسه حتى تثقبه ثقبًا يمر الدم من خلاله.. غرقت الأرض بدمائي وغرقت أنا في الأرض.. بلا خبز ولا جنيه ولا شبكة..

لم أدر بحالي إلا وأنا ممددًا إلى جوار أبي في حجرة باردة ضيقة، أسمع صوت أمي من خارجها تهمس لأخي الأصغر: جنيهًا يساوي الخبز.. احكم قبضتك عليه واذهب لتجلب لنا الخبز؛ فلقد فقد أبوك وأخوك رأسيهما في الطريق.. أياك أن يسقط منك.. يضيع الجنيه.. تضيع أنت ونجوع نحن. قالت أمي بحذر أكثر!..

في سبيل الماء..

نيسان، الجو معتدل، لكن الفتى يشعر بالبرد، دائمًا ما كان يشعر بالبرد حتى في قيظ الصيف كان سوس الثلج ينخر عظامه!، ربما بسبب جسده الخالي من الدهون، أو بسبب جيبه الخالي من النقود!..

نيسان، شهر الكذب وآخر الشتاء، قال الأجداد في الأمثال "مطرة نيسان تُحيي الأرض والإنسان"، هل هذا المثل كاذب أيضًا؟!، ربما..

كان الفتى يكره البرد حيث أنه يضطر إلى أن يزيد ملابسه قدر استطاعة قدرة جسده النحيل على الحمل، ذلك الصقيع جعله مدمنًا على الخمر؛ فالخمر يدفئه!..

استيقظ الفتى قبيل الفجر يرتعش أثر كابوس رأى فيه نفسه عاريًا يقف مسلسلًا على أرض تُشبه رقعة الشطرنج، والأرض مسطحة ذات ميل بسيط ثم تنحدر وتزيد انحدارًا، فينزلق الفتى في طريقه للسقوط..

نهض بصعوبة يتلمس طريقه في الظلام فاصطدمت يده بفراء كلبته الهزيلة، كانت كلبته وفية كباقي الكلاب لكنها كانت كفيفة، ولم يؤثر هذا العجز كثيرًا عليها حيث أن الكلاب جميعها تعتمد على حاسة الشم لا البصر، شعرت الكلبة بجسده المرتعش، فاقتربت منه كقطة حنون وأخذت تتمسح به مستخدمة فرائها الكثيف في محاولة طيبة منها لمنحه بعض الدفء، ارتسمت ابتسامة على وجه الفتى وربت على كلبته اللطيفة مداعبًا، وقال: لكنني أحب النساء..

خطا مترنحًا بعض الشيء إلى أن وصل إلى مكتبه المتواضع، وصب لنفسه كأسًا من خمر رخيص، ثم ألقى بالكرة، فأخذت الكلبة تنصت السمع إلى دبيب الكرة على الأرض، ثم تحركت بحذر وأمسكتها وأحضرتها إلى صاحبها وهي تنبح كمقاتل روماني انتصر في حربه البونية..

حاول الفتى أن يحصل على حمام لكنه تذكر أنه لا يملك سخانًا، قرر أن يستخدم الموقد في تسخين بعض الماء لكن الماء كان منقطع، تُرى لماذا تنقطع المياه؟

تعلمنا في المدرسة أن الماء يأتي من النيل.. في طفولتي سألت مدرسة الفصل، مادام الماء ينقطع إذن النيل ينقطع، ضحكت من سذاجتي وأخبرتني أن الزعيم أقام السد العالي، وبهذا لن ينقطع الماء ولا النيل..

قال الفتى: ألا لعنة الله على السدود!، أمر جيد أن صديقتي لديها ما يكفي من الماء، الكلاب لا تحتمل العطش مثلما يحتمله البشر..

سألت مدرستي: ماذا لو بنى كل زعيم سدًا عاليًا؟ أجابتني بصمت مخجل، وابتسمت ابتسامة مقاتل قرطاجي انسحق من أثر الهزيمة.

في سبيل الأرض..

(1)

اختفت الشمسُ منذُ ستة آلاف وستمائة ساعة، يوم طويل.. اعتاد أهل القرية حالة الضباب نهارًا والظلام ليلًا وتعلموا الصمت واحترفوا البكاء، اصطفوا بمحاذاة ضفة النيل الغربية مشكلين مجموعات هائمة في حال من الاصطلام، يرسمون صلبانًا، يخشعون رُكعًا وسجودًا، يسجنون في ظلال النار؛ على أملٍ أن يرفع الله مقته وغضبه عنَّا؛ فتنقشع الغُمة، وتُكشِّف السماء عن رحمتها؛ فتطلع الشمس.. كانت مآقي أعينهم قد جفَّت من طول البكاء وكثرته ولم يبق من الدمع سوى الدم، أخذ الدمع ينساب من أعينهم ويمتزج بالطمي شاقًا قنوات تصبُ في النيل مما تسبب في ارتفاع منسوبه واصطباغه بالأحمر، فقد الكثير البصر، قريةٌ من العميان هي قرية حزينة.

تمشي أم العزيزة بين الحشود بثباتٍ وثقة، وتخبرهم أن الفرج قريب شرط الصبر، والصبر شرطه العجز، صرخت: يا قوم تحلَّوا بالإيمان.

النباتات ماتت، الماشية ماتت، الأطفال ماتت.. وأم العزيزة لا تموت تجاوزت المائة عام من عمرها ومازالت تحتفظ ببريق عينيها الخضراوتين وسواد شعرها، فقط انحناءه بسيطة في ظهرها تقاومها بعصا تتكأ عليها، وذبول نهدها الأيسر الذي بدا كحال الأيمن لمَّا ذَبُل قبل أن يسقط كورقة خريفية منذ ما يقرب من الستين عام.

اشتهرت أم العزيزة في قريتنا وكل القرى المجاورة بكونها تمشي على الماء، كما أنها كانت مرغوبة من الرجال على الرغم من أنها بلغت من الكبر عتيًا، في هلال كل شهر كانت تنتقي عاشقًا، ويقسم الرجل منهم أنه بمجرد اختلائهما تتحول إلى فتاة كما الحوريات: بشعرٍ ذهبي ترفرف حوله الفراشات، وعينين بقريتين في سعة السماء، وأنف خَجِل محاط بوجنتين تفاحتين اللون والطعم، وشفتين حمراوتين تقطران دمًا في طعم الشهد أو شهدًا بلون الدم، وأن صانع الفخار القديم نحت جسدها وجعله في نعومه الماء، وشهبِ الحليب يصدعه سواد الزغب في فرجها الذي لا يقوى أن يُخفي ورديته، ونهدين واثبين بحلمات وردية ثائرة، جسد في سخونة الخبز فور خروجه من النار ما أن يراها الرجل حتى يصبح أسيرًا لنزعات شبقية مُشتعلة لا تنطفيء، يدخل بها كوخها القصبي ذا السرير الرمادي الذي غزاه النمل الأبيض راسمًا خطوطًا متداخلة يراها الضيف كوجه بعين واحدة فوق أرضية رملية مبتلة ببول أم العزيزة ومزدانة بغائطها، ذلك الكوخ ذو الهواء الدخاني من أبخرة حرائق قش الأرز مع رائحة هذا الغائط المبلل، ولكن بتحولها ينقلب هذا الكوخ قصرًا فسيحًا ذا أبهاء وحجرات لا تُعد، في المدخل أساطين دورية الطراز ذات تيجان مزخرفة بزخرفة المسبحة تُشرق عن بهو عظيم على جانبيه صف من تماثيل متعددة بين رخامية وفضية وذهبية كلها لرجالٍ كاملين الصورة وعذراوات نواهد وكواعب، وعلى الجدران نحت وصور كثيرة كلها تصور الشمس بأشكال مختلفة الشمس التي حُرِمَ منها الجميع.. أرضية هذا البهو خضراء مُشعة من رخام مُعرَّق، ويتوسطها بحيرة من حليب مُحلَّى بعسلٍ ترعى حوله غزلان قرونها من ذهب وطير يصدح بأصوات تبعث على السُكْرِ.. عندما يتجاوز

الرجل مع أم العزيزة هذا البهو يغشاه نورٌ أبيض ويبتعله المكان، ودائمًا ما يصمت الرجال عند تلك اللحظة، وجميعهم أعترف أنه يذكر كل ما حدث بتفصيله ولكن كلماته لا تتسع للوصف.

ولذلك كانت أم العزيزة أشهر من في قريتنا وفي كل القرى، والأهل يصدقونها صدقًا مطلقًا فهي القادرة على رؤية الأشجار تمشي، وهي التي تسبق كل نبوءة، وهاهي تصرخ في السماء كمرأة تتقاذف السباب مع أخرى: يا شمس..

يا له من يومٍ طويل!، لكن الشمس طلعت أخيرًا، فكان النور؛ والسلام عليَّ يوم وُلدتُ.

(2)

ولدتُ مع الميلاد الجديد للشمس في قريتنا؛ فأسماني والدي صباح، بيتنا ريفي من ثلاث حجرات مؤثثة بأثاث بسيط لا يختلف عن بيوت القرية حتى تلك الصورة الزيتية لذلك الجنرال المؤطرة بإطار خشبي لونه أحمر باهت منسوج حوله خيوط كثيفة لعنكبوت عُمره من عُمرِ الدار، الجنرال مُصور على فرسٍ قزم وهو منتصرٌ وناصرْ، منيرٌ وأنورْ، مُبارِكٌ ومُبارَكْ وفي خلفيته الشمس.

(3)

الشمس التي ترى أفعالنا على مر العصور، تراقبنا بحذر وتعاقبنا بحزم، عُبدتْ على مر العصور، ومنحت القمح للفلاحين، والدفء للعاشقين، والويل للمعتدين.

كان الكابتن البريطاني وفرقته يصيدون الحمام في "دنشواي"، وكان الحمام في ضخامة الفيلة ذلك الزمان بحويصلة منتفخة بالذهب

يلتقط الغلال عند الأجران التي تصل إلى السماء طولًا، يلتقط حبة قمح في حجم بيضة تنين العُمدة ويذهب ليلاعب طفلًا من أطفال البلدة الحُفاة، في تلك الأثناء ضرب الكابتن قذيفتين من مسدسه الذي كان في حجم الطائرة فأشعل القمح كله وأحرق البيوت جميعها، وقتل كل طفلٍ؛ فاختنق الفلاحين والفلاحات من أثر الدُخان حتى فرقته أُبيدت عن أخرها من الدهشة، ولم يبق في البلدة سوى الأشباح، شرع الكابتن بالعدو ناسيًا أن الشمس حمئة، ولا تترك المعتدين، طارت الشمس في أثره شاقة السحب مُزيحة الطيور، غاضبة غضبةً أشد من غضبتها حين استهزأ بها الناس وأرسلت "سخمت" لقتلهم، حتى أمسكت الكابتن بيدين سوداوتين ونفخت فيه من حرِّها فسقط صريعًا في لحظتها.. عاد جيش جبار للانتقام وحاكم القرية الخاوية، وصدر الحُكم غيابيًا بشنق كل الأشباح أثنان وتسعين مرةً يوميًا لمدة ستة وثلاثين عامًا ولم ينجحوا إلا في قتل أربعة أشباح.

(4)

أشباحُ طفولتي خبيثة لدرجة أنها تحنو عليَّ؛ فأنا لا أتذكرها!، وتقسو عليَّ؛ فتطاردني في منامي!.

شبحُ والدي صنع للناس" شربات" حلو؛ ليسقيهم كما نَدَرَ، بدَّل الشراب الحلو بماء النار وشرب كل الناس منه ثم غسلني به وهو يضحك ضحكات ميتة برائحة عفنة، تساقط جلدي كأوراق خريفية، وخرجت للطريق دون جلد، يقذفني العجائز بالحجارة، أجري وهم خلفي يلحقون بي، يمسكونني، يأكلون من لحمي بنهم، ويضحكون نفس ضحكات أبي الميتة..

حلم آخر كانت أمي في صورتها الشبحية مستلقية على السرير مع رجل غريب، عراة، كان يضربها بسوطٍ، أدخل الحجرة حبوًا تقوم أمي من مخدعها وتصفعني على وجهي مرارًا إلى أن تسيل دمائي، فيتحول الرجل الغريب إلى شيخ الخفر والسوط في يده ينقلب بندقية يهددني بالقتل إن نطقت ما رأيت!، ثم تركلني أمي فأتمدد على الأرض تقفز فوقي وتصفعني وشيخ الخفر يضاجعها من دبرها ويخترق بقضيبه جسدها حتى يلامسني أصرخ بلا صوت، وأمعن النظر في وجه شيخ الخفر فأراه أبي ممسكًا بنفس السوط يجلدني مائة جلدة ويصرخ في وجهي: يا زانية، أصرخ متضرعة: كان سيقتلني شيخ الخفر.

أما عن شبح حلاق الصحة فهو أكثر أشباح طفولتي خبثًا؛ فهو يزورني كل ليلة تقريبًا بالموسي الدموي الذي يسكنه القراد يمددني على ظهري، أبي وأمي يفتحان فخذيَّ يضع الموسي على فرجي ويقطع، يقول أبي: زد. فيزيد، وتقول أمي: زد. فيزيد، أبكي؛ فيزيد، أصرخ؛ فيزيد، ثم يأتي رجال القرية ويهتفون مشجعين: زد. فيزيد، وبعدهم تأتي نساء القرية تهتفن شامتات: زد. فيزيد، ويلحق بهن أطفال القرية ويهتفون لاهيين: زد. فيزيد، وفي ذيلهم طفلات القرية تهتفن خائفات: زد. فيزيد، ويزيد..

حلم الكرمل..

وأخيراً.. ها قد وصلت إلى جبل "الكرمل" بعد مشقةٍ وعناءْ، تكبدتُ في سبيل تلك الرحلة ما لا أطيق، ولا أصبر..

رنوتُ إلى البحر، وغبتُ زمناً، كم يُذكرني هذا البحر بموطني!، اشتقتُ..

أسندتُ ظهري إلى شجرة سنديان وطعمتُ بعض حبات العنب واللوزيات، أخرجتُ مصحفي وأرياشي وشرعت أكتب سطراً في الأدب، الكتابةُ فعلٌ شاقْ..

أبحث حولي عن طائرٍ ما، كلب، أو غانية تُلهمني الصبرَ الجميلَ، فإذا بشاب مليح، حسن الزي، طيب الريح، آتاني وابتسم، ألقى السلامَ وجلس، ثم قال: عرِّف ذاتك.. وصمت.. أخبرته باسمي وخبري، واسترسلتُ في الحديث، وقلتُ: أني أبلغُ البشر لساناً.. وهو لا يزال على هدوئه لم ينتفض! -رغم كونه في حضرتي-، إنما أنا من انتفضتُ في حضرتهِ..

تمالكت نفسي وتمنيتُ عليه أن يروي لي حكايةً، قال: وكيف تصبرُ؟، قلتُ: ستجدني..

فروى:

منذُ آلاف السنين قابلت في موضعك من قال أنه أعلم البشر، وتمنى عليّ المصاحبة، شرط الصبر!، فانطلقنا حتى ركبنا سفينة لمساكين فخرقتها!، فقال: يوماً كنتُ رضيعاً وضعتني أمي في صندوقٍ وخرقته وألقته في اليم لأنجو من قتلتي..

فانطلقنا ثانيةً حتى لقينا غلاماً، فقتلته!، فقال: يوماً قتلتُ نفساً ذكية بغير نفسٍ..

فانطلقنا للمرة الثالثة فاستطعمنا أهل قرية فأبوا، فوجدنا جداراً يريد أن ينقض فأقمناه دون أجرٍ ومشينا!، قال: يوماً سقيت لفتاتين دون أجر..

قاطعته: إنك لكذوب، تُحرّف القصص..

قال: هذا فراق بيني وبينك دون تأويل ما لم تستطع عليه صبرًا..

واختفى، وغاب.. إنما بقيت ابتسامته وريحه الطيبة.. عُدتُ إلى شجرة السنديان مردداً: سلامٌ عليكَ سيدي.. سلامٌ عليكَ سيدي..

حلم الرقعة..

ظلامٌ دامسٌ يلفني، لا أسمع سوى الصمت الذي يسجن أنفاسي تحت ذلك اللجام، عيناي المعصوبتان لا تبصر سوى السواد، العرق ينسال على جبيني، أستشعره يسقط حارقًا يجرحني ويمتزج بالدم.

دمي الرخيص المدنس بلا ذنبٍ يجف على وجهي ويخلق طبقةً أسمك مما تحتها، أحاول الحركة، الدوران، الفرار من ذلك المسار المجهول، أعجز، يداي مشلولتان، لا يُسند ساقيّ سوى مسمارين مثبتين في قدميّ، ينخران عظمي، يرسمان بالدم خطوطًا هي المسير الأبدي لخطواتي نحو هاوية أعرفها بحدسي.

أشمُّ في الهواء أنفاسًا كريهةً تنفث كراهيةً وعجزًا وذلْ!

هل أنت قاتلي، أم أنك بائسٌ أخر يشاركني نفس المصير، أم أن تلك أنفاسي التي تشي بما أقترفتُ لطيات الهواء، لتشهد عليّ يوم قيامتي؟

تتمايل الأرض، تترنح كعاهرة أتعبها السُكر حتى كادت تفرغ ما بجوفها من عفن.

تنقلب الأرض، رأسي الذي يحمل كل حمم دمائي أوشك على الانفجار.

تسكن الأرض، لكنها لا تنفك أن تعيد كل الخطايا.

تسقط عيناي على سوادٍ لزجٍ، تُبصر الدم، أسمع صراخي يخلع قدميّ المسمرتين من الأرض.

تميل الأرض وتلفظني كعفنٍ في جوف عاهرة!.

حلم الغرق..

أسير بتمهلٍ وارتباكٍ، خطواتي لا تعرف الطريق أو ناسيةً إياه، تُغرق المياه كل شيء، الأرض اكتظت بالدماء فأبت أن تشرب الماء، قدماي غارقتان في الوحل، أشعر بنفسي عاريًا.

أنظر إلى الناس المارين في الطريق، أعرفهم جميعًا، لكن يبدو أنهم لا يعرفونني، يسيرون بخفةٍ على عكسي، يتكلمون ويتضاحكون.

الباعة يقفون إلى جوار عرباتهم يبيعون بضاعتهم، الأطفال يلعبون، يبدو كل شيٍ عاديًا جدًا، ألوح لهم، أحاول أن أحادثم لا يلتفتون إليّ!.

أخطو في اتجاه بيتي، أسقط أكثر من مرة أثناء سيري، أتسخ بالطين، تجرح جبهتي، ألقاني مواجه لمنزلي، أصعد السلم، أسمع صراخ يتبعه زغاريد، ثم يعود الصراخ من جديد، فتتبعه الزغاريد، يتداخلان الصراخ والزغاريد، أشعر بالدوار، أبكي.

أجد نفسي مواجهًا لباب بيتي، أبحث عن مفتاح البيت، لا أجده، أبحث عن أي مفتاحٍ، لا أجد سوى الفراغ!.

أطرق الباب بعنفٍ، تدمى يداي، يفتح الباب، ألقاني قبالة نفسي أبتسم، وحول رقبتي حبل مشنقة.

الزواج من الآنسه "ف"..

"قمة"

أحلم بالطيران، لا بركوب الطاثرة والسفر، بل بالتحليق للأعلى، أن أكون حُرًا، أنظر إلى صغر الناس من علٍ، في طفولتي كنت أصعد إلى سطح البيت، أنظر إلى المدى، ثم أرفع رأسي إلى السماء، وأراني بين السُحب أبتسم، أغرمت بعباس بن فرناس منذ أول معرفتي به في مكتبة المدرسة، وتمنيت أن أكون مثله!.

"كهف"

كنت خارجةً من مدرستي فرِحة بحصولي على التوجيهية بعد صبر وعناء، متشوقة لأبشر أسرتي بالنجاح.. لمحته: شعره البني القصير، عينيه العسليتين النبيهتين، ابتسامته الآثرة، اقترب مني، ونظر إلى عيني، أحببته، أغرمت به!، لكنني تجاهلته و تأدبت في مشيتي، تبعني، حتى لحق بي: ممكن كلمة؟. قال. قُلتُ: كلم بابا.. وأسرعت الخطى، ومن وقت لأخر كنت أنظر خلفي لأراه يتبعني فابتسم،لم أنم تلك الليلة من فرط سعادتي..

في اليوم الثاني كان يجلس مع أبي في حجرة المعيشة المتواضعة وبعد أن طرده أبي، ناداني وأجلسني بين أمي وإخوتي الستة: الأفندي جاي يطلبك من غير أبوه..

تقابلنا، شرح لي أن أباه رفض أن يبارك الزواج؛ فقرر أن يأتيني وحده، وبالتبعية رفض أبي.. تناسينا، كُنا أطفال تقريبًا، لكن يشملنا الحب، قررنا الهرب!..

بعد أيام، خرجت للتسوق، كان ينتظرني بدراجته، ركبت أمامه يحيطني بذراعيه، وانطلقنا، وإذا به يأخذني إلى بيت خالي!.. شعرت بالخوف، لكن نظراته كانت حانية ومطمئنة، صعدنا لأجد خالي وعمه ومأذون وشاهدين!..

كم أنا سعيدة!، لدينا من الأطفال أربعة: ولدين وبنتين، كُنا مستورين، نُحايل الأيام، لكنني كنت أشتاق لأسرتي الأولى..

اللي ملهوش خير ف أهله.. ملهوش خير في حد.. فذهبنا لنراضي أبي لعله يبارك الزواج، اصطحبنا الأطفال واشترينا الهدايا.. لمّا رآنا أبي لم يسلم ولم يتكلم.. اقترب مني رفع يده، وشد من أذنيّ قرطين الذهب، وضعهما في جيبه: الآن اخرجوا..

"سفح"

صنعت جناحين من ريش الحمام، كانا صغيرين، لكنني ارتديتهما على كل حال، وصعدت إلى سطح البيت، نظرت إلى السماء، رأيتني أبتسم؛ فابتسمتُ، وتركتُ نفسي حرًا للسقوط..

الزواج من الآنسه "ع"..

"قمة"

أسقط في كل محاولاتي، يبدو أن ركوب الدراجات أمر عسير عليّ دون خلاني، حتى من يصغرونني سنًا، كلما حاولت التبديل أبدو كبحار أبله يجدف في الرمال، تؤلمني قدماي، سقوطي دائمًا مدوٍ، ضحكات من حولي تثير في نفسي الحنق، كيف أصبحت أكره الجميع حتى نفسي!، إعلان عن سباق للدرجات النارية، نقطة البداية: الإسكندرية.. نقطة النهاية: أسوان..

"كهف"

كنت أجمل بنات الحي، جاء يطلبني للزواج طمعًا في جمالي، وافقت طمعًا في ثروته الصغيرة.. اشتر لي أرضًا بكرًا، حين تُعمرّها تُعمرّني.

وافق.. ثم بنى لي بيتًا كبيرًا، خلصني من فقر أسرتي الصعيدية، سعى أن يُسعدني، لكن قلبي فشل أن يميل إليه أو يرق. كنت قاسية عليه، ولم يسلم من جفائي ولا حدة لساني.

أنجبنا طفلين كان موقن بأنهما طفليه إلى أن كبر الشك داخله وأصبح وحشًا ماكرًا. أقنعني أنه سيسافر مع الطفلين لزيارة أهله، ولم يلح علي لأرافقهم حيث كنت طريحة الفراش من أثر المرض، ومادامت الزيارة ستستغرق يومًا واحدًا على الأكثر، فلا داعي للتعب.

لا أدري إلى أين أرسل الطفلين؟، لكنه اختبأ داخل تابوت في مدخل البيت، كان قد اشتراه يوم زفافنا.. خرج بعد سويعات قليلة،

وكسر باب البيت ودخل إلى حجرة النوم حيث كنت نائمة محمومة، نهضت مفزوعة، نظر بغضب إليّ ثم للفراغ إلى جواري. رسم أصابعه كمسدس وأخذ يصفر صفيرًا كطلقات الرصاص، ثم صرخ: الموت للخونة.. الموت للخونة.

استدار وفر هاربًا وكأنه ارتكب جريمة حقًا.. هنا مال إليه قلبي، فلقد رأيته ظريفًا ذا خفة ظل.. نهضت لألحق به وأنا ابتسم، لكنه كان قد ركب دراجته النارية التي كان يطلق عليها "روثينانته"، وانطلق..

"سفح"

ها أنا ذا أقود دراجتي النارية دون أن أسقط، أحمل الشمس فوق رأسي، وألفح الهواء بوجهي.. ما الذي أتى بي إلى حدود أسوان؟، لا أشعر بأي ألم، لكنني أيضًا لا أذكر شيئًا!..

الزواج من الآنسة "س"..

"قمة"

أذكر أن لي حلمًا وسقطةً، يبدوان في خاطري كطيف واحد يمر سريعًا، هل تزوجت مرة؟.. مرتين؟.. أم ثلاث؟!. لا أعرف تحديدًا، لكنني على علم بأنني تزوجت.. ألدي مال أو بنون؟.. لا أتبين ملامحي في المرآة.. يبدو شعري أبيض ناعم، وتبدو عينيّ بنيتان مجهدتان، وترتسم ابتسامة على شفتيّ لا أدري مصدرها..

"كهف"

كنت عذراء، انقطع الطمث عني منذ فترة بعيدة، قروية ساذجة، أخدم أسرتي، ولا أعلم من الأمور شيء سوى ما يجب فعله في البيت من أعمال.

في الزمن الأول كنت أحلم بالزواج كأي فتاة، فستان أبيض مطرز بالورد، طرحة بيضاء تخفي شعري وبعض وجهي. مر الزمن سريعًا، الأيام متشابهة، الحلم ينساني وأنساه.. حتى جاء يوم وزارنا شيخ مسن يطلبني للزواج، أرمل لامرأة، ومطلق لأخرى. وافقت دون تردد، عاد الحلم القديم، الفستان الأبيض والطرحة البيضاء!.

كان شيخ حنون، لبى لي ما طلبت: شبكة ذهبية، مهرٌ، فرح عامر بالضيوف، حتى أنه راقصني، عُدت صبية صغيرة، أحسست أنني رحمةٌ أرسلها الله له، وأنه عطفٌ أرسله الله لي.

اشترى لي بيتًا في أرض قفر، لكنه جعله لي كالجنة، زرع لي الأشجار، وأحضر لي الداجن لأربيه، كان يناديني: يا بنتي، وكنت أناديه: يا أبا!.

كان يحتضني ويقبلني من حين إلى أخر، ويحكي لي الكثير من الحكايا: زيجاته المتعددة، حبه الأول والأخير، حروبه، انهزاماته، أحلام صباه، أولاده أولئك اللذين لا يسألون عنه، أحفاده الصغار.

كان يضحك ملء شدقيه حين أحدثه بلهجتي القروية، وكنت أسمعه يبكي ليلًا حين أنام.

وفي صباح يومٍ مشمس، خرج من الحجرة باكيًا، ونادني: يا أما.. بقول لك إيه؟.. إنتِ مين؟

"سفح"

تُرى من هي تلك المرأة الجالسة أمامي؟

أهي أمي؟

لا، فأمي ماتت قبل أن تلدني.

أهي أختي؟

لا، فأختي تزوجت قاتل أبي.

أهي زوجتي؟

لا، فزوجتي قُتلت قبل أن تخني.

أهي ابنتي؟

لا، فابنتي نائمة تُرضعها أمها.

يا أما.. بقولك إيه؟.. إنتِ مين؟

كتاب السيرة الأول..

(1)

في الفصل، تسأل المعلمة: ما هي أكثر الأماكن امتلاءً بالرمل في مصر؟

ترفع إحدى الفتيات يدِها، تطلب المعلمةُ منها أن تقف لتجيب، فتقف الفتاة وهي تشد مريلتها التي انحشرت في مؤخرتها، لا أستطيع أن أُمسك نفسي عن الضحك.

تجيب الفتاة: الصحراء.

يعلو صوتي بالضحك رغمًا عني، فتنهرني المعلمة بحدة وتطلب مني الوقوف صارخةً، أقف لأجدني أُخرج مريلتي التي انحشرت في مؤخرتي أيضًا فيزداد ضحكي.

تصرخ المعلمة: بتضحك على إيه يا حيوان إنتَ؟

أبتسم: أصل هي جاوبت غلط.

تقترب مني المعلمة: وإيه الصح بقى يا فالح؟

أهرش رأسي مفكرًا ثم أُجيب: محطة الرمل يا أبلة.

تنزل صفعةٌ على وجهي وسط ازدياد هرج الأطفال وضحكهم حد الصراخ.

ألقاني على باب ناظر المدرسة ممسكًا بورقة أخبرني زميلٌ لي في الفصل كان يعرف القراءة أنها استدعاء ولي أمر.

(2)

في المنزل، تنهال عليّ الصفعات من أبي بعد أن أخبرته بأمر الورقة، ثم تناولت أمي الخرطوم وأكملت وصلة الضرب حتى ازرقّ جسدي، وأنزويتُ في ركنٍ أبكي وألعق نفسي ككلبٍ جريح.

(3)

في المدرسة، جاء أبي معي إلى مكتب الناظر، فسأله الناظر: فين أمه؟

فرد أبي بغضب: ليه وأنا مش مالي عينك؟

وهنا علمت أن سري قد انكشف، فقد أخبر الناظر أبي أنني أدعيت أن والدي ميتٌ حيث أحصل في كل شهرٍ على حذاءٍ أو بنطالٍ على سبيل صدقة اليتيم، وقد كنت أبيعهم بالطبع.

احمرّت عينا أبي وصب عليّ جام غضبه وأخذ يضربني وهو يصرخ: بتفوّل عليّا يا ابن الكلب.

وكان الناظر يشاركه من وقتٍ لأخر ويضربني بعصاه. حتى فقدت الوعي من حُسن حظي.

(4)

على الطريق، في شارع بور سعيد أرتدي زيًا عجيبًا أشبه بملابس تشارلي تشابلن، ممسكًا بشنطةٍ من الجلد، أستغل وسامتي الطفلية، أبتسم، وأنادي بهمسٍ: دولار يا بيه، فرانك يا باشا، درخمة يا خواجة؟

كان أبي قد طلّق أمي منذ عامٍ بعد أن عرفت أنه متزوجٌ من غيرها فهجرته، وسافر مع زوجته إلى ليبيا للعمل أما هي فتزوجت

من ابن عمها. وكان رجلًا سمحًا يعاملني جيدًا، لكنني كنت أعمل في تجارة العملة في السوق السوداء تحت إمرة الخواجة أناستوبولوس وأحضر المال أخر اليوم لأمي وأخبرها أنني كسبته في مبارة لكرة القدم.

(5)

"دولار يا بيه، فرانك يا باشا، درخمة يا خواجة؟"

وإذا بيدٍ تصفعني على قفايا، لم ألتفت وإنما عضضت على ذيلي وأطلقت ساقي للريح فقد حسبته أحد المخبرين، وحين اطمئننتُ ألا أحد يتبعني عدتُ إلى المنزل وأنا ألهث، لأجد أمي وزوجها جالسين ومعهما أبي وحين رآني صفعني على وجهي: عندك تمن سنين وبتبيع عملة يا ابن الكلاب؟

جريت منه إلى حضن أمي وأنا أبكي، وحاول زوج أمي أن يهدأه.

جلس أبي وهو ينفث ويزبد: الواد ده من بكرة يجي معايا ليبيا، يشتغل وياكل عيش، إنما هنا هرجع هلاقيه في السجن.

أحاول أن أتدارك نفسي من البكاء وأنا أنهنه دموعي وأقول بعجز: أنا عايز أتعلم.

ينظر أبي إلي بغيظ ممتزج بالحسرة: هتتعلم صنعة.

كتاب السيرة الثاني..

(1)

في المصنع، أنكب على ماكينة الخياطة من الصباح الباكر أعمل إلى جوار أبي، بين الحين والأخر يسبني بأمي، أصمت.

سنواتٌ مرت وأنا هنا في ليبيا مع أبي وزوجته وأطفاله الأربعة، أرسل لأمي خطاب، لكنها لا تجيب، أشتقت إليها، هل سرقتها الدنيا مني؟ ما حال أشقائي؟ هل أنجبت أطفالاً أخرين من ابن عمها؟

أتساءل وهي لا تحيب!

(2)

في الملعب، أركض بالكرة، أراوغ، أمرر، أسدد.. يصرخ الناس من النشوة، يهتفون باسمي، في تلك اللحظة فقط أنسى كل شيء: أبي وقسوته، أمي وهجرها، إخوتي وبكائهم، حبيبتي صباح.

أنسى الجميع، ولا أرى غير الكرة، وفي رأسي خيال "باولو روسي" يجري حاملاً كأس العالم، أفيق لأجد نفسي في المستشفى العام، بكسرٍ في ضلعي وخلعٍ في كتفي الأيمن!.

(3)

في المنزل، استريح في حجرتي، لا استطيع النوم حتى منتصف الليل، تخطو أقدامٌ إلى الحجرة، يُفتح الباب، تدخل زوجة أبي عارية، تقترب مني، أغمض عيني من هول الصدمة، ترفع الغطاء وتنسل إلى السرير تُقبلني، أفتح عيني، وأنظر لها بغضب، تخرج مسرعة!.

في الصباح تخبر والدي أنني تلصصت عليها وهي تستحم، فيطردني أبي من البيت!.

(4)

على الطريق، غريبًا، وحيدًا، لا أب لي ولا أم ولا وطن!.

أحتضن الرصيف وأنام لعلني أستيقظ من ذلك الحلم المزعج وأجد نفسي في حضن أمي أحاول أن أذاكر لأعرف ما هي أكثر الأماكن امتلاءً بالرمل في مصر!.

كتاب السيرة الثالث..

(1)

كانت الأزمة مستمر بين مصر وليبيا لذا سافرنا أنا وأبي وزوجته وأطفالهما من ليبيا إلى اليونان وعدنا بالطيران إلى مصر، وعندها نزلت من الطائرة وسجدت على أرض الوطن أُقبلها، دخلنا إلى المطار فأخذ مأمور التفتيش يقطع كراتي ويمزق أحذيتي الرياضية: مستخدمًا سكين: عامل لي فيها ماردونا يا ابن الكلب؟

(2)

عاد أبي مع أسرته إلى بيته، وعدت بدوري أبحث عن أمي وعن أي شيء يخص طفولتي.

جلست على إحدى المقاهي، وشربت قهوتي، وحين ذهبت لأحاسب القهوجي: ما تخلي يا أستاذ.

ابتسمتُ، وأعدت النقود إلى جيبي، وخرجت، وهو ينادي: يا أستاذ.. يا أستاذ.. الحساب؟

إنت مش قلت لي خلي؟

إنت غريب ولا إيه يا أستاذ خلي دي بنقولها كدة عزومة مراكبية.

لم أفهم ولم أعرف ماذا علي أن أفعل هل أدفع أم لا. دفعت له، مد يده لي بالباقي.

خلي..

فخلى النقود، وسط اندهاشي، ذهبت وأنا أسخر من نفسي ولا أفكر سوى في أمي.

(3)

أطرق الباب، تفتح لي فتاة عشرينية جميلة، وحشتيني يا بت.. أنا أخوكي.

تصرخ: إلحقي يا أما راجل غريب عايز يحضني وبيقول لي أنا أخوكي.

تأتي أمي مسرعة ممسكة بسكين المطبخ، يسقط من يدها ترتمي في حضني وتبكي.

(4)

سبعة عشر عامًا في الغربة، كان أبي يمزق خطابات أمي التي ترسلها إليّ.

سبعة عشر عامًا أحلم بذلك اليوم الذي آتي إليها لأعاتبها أنها نسيت أبنها.

سبعة عشر عامًا سُرقوا من عمري، لا أعرف شيئًا عن إخوتي وأهلي، عدتُ شابًا، لكن رأسي خطه الشيب.

(5)

تمر السنين أستشعر الدفء مع أمي، إخوتي، بعض جيران الطفولة، المقاهي، والكرة الشراب.

أستعيد نفسي، أمشي في الشوارع أتذكر تجار العملة، المدرسة، صديقتي ذات المريلة.

يأتيني أخي غير الشقيق، يخبرني بأن أبي على فراش الموت ويطلبني.

(6)

يتمدد أبي على السرير، أدخل إليه، أجلس إلى جواره.

أبي: هات سيجارة يا ابني.

أنا مبدخنش يا أبا!

أبي: هات سيجارة م العلبة اللي بتخبيها ف الشراب.

أخرج علبتي أعطي له سيجارة، يمسكها ولا يُشعلها.

أبي: ولع إنت كمان واحدة يا ابني.

لم أشرب في حياتي سيجارة أمام أبي أو أمي، أخرج سيجارة وأشعلها، ينظر أبي إلى ويبتسم.

أبي: سامحني يا ابني.

أنزل على قدميه أقبلها، أبكي: أنا مين يا أبا بس عشان أسامحك.

يربت على رأسي ويسألني: عارف يا لَا إيه أكتر حتة فيها رمل في مصر؟

"محطة الرمل يا أبا"

كان أبي يبتسم وكنت أنا أبكي!.

الفهرس

عن هوس الأمير..... 7
عن هوس المملوك..... 17
عن هوس الثري..... 23
على حافة العدم..... 27
على حافة الاحتمال..... 31
على حافة الحرية..... 35
إلى صباح..... 37
إلى ديالا..... 43
إلى آية..... 49
في سبيل الماء..... 55
في سبيل الأرض..... 57
حلم الكرمل..... 63
حلم الرقعة..... 65
حلم الغرق..... 67
الزواج من الآنسه "ف"..... 69
الزواج من الآنسه "ع"..... 71
الزواج من الآنسة "س"..... 73
كتاب السيرة الأول..... 75
كتاب السيرة الثاني..... 79
كتاب السيرة الثالث..... 81